صلاح الدين أقرقر

وإذا الأحلام وُئِدت

رواية

مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

وإذا الأحلام وُئِدت

رواية

صلاح الدّيـن أقرقر

وإذا الأحلام وُئِدت

روايـــة

مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت–لبنان

مؤسسة الرحاب الحديثة
للطباعة والنشر والتوزيع

الكتـــاب: وإذا الأحلام وُئدت
الموضوع: روايـــة
تألـــيف: صلاح الدّين أقرقر

ISBN 978-9953-594-99-6

جميع الحقوق محفوظة ©

الطبعة الأولى: 2018
تصميم الغلاف:
القسم الفني في مؤسسة الرحاب الحديثة
تصميم وإخراج داخلي: حسين طه

يُمنع نقل أو نسخ أو اقتباس هذا الكتاب أو أي جزء منه بأية وسيلة طباعية أو إلكترونية إلا بإذنٍ خطي من المؤلف والناشر.

هـاتــف: 00961 3 359788 تلفاكس:00961 7 241032
ص. ب 11/3847 - بيروت - لبنان
alrihabpub@terra.net.lb
ahmad.fawaz@live.com

كلمة المؤلّف

كثيرا ما نرى متشرّدا هائما على وجهه لا يلوي على شيء، ولكن قليلا ما نحاول أن نسبر أغواره لنكتشف أسراره وما يعتمل في أعماقه وكأنّه وُلِد على هيئته هذه ناسين أو متناسين أنّه كان يوما ما إنسانا طبيعيا مثلنا يأكل ويشرب وينام ويضحك ويحلم...

عندما كنت صغيرا كنت أرى ذلك المتشرّد وهو يطوف أرجاء قريتي الصّغيرة مُتلفّفا في بطّانيته الرّثّة. وكنت دائما أتساءل في قرارة نفسي عن القصّة الّتي خلّفها وراءه. وعندما كبرت وتركت قريتي لظروف العمل بقيت صورته راسخة في ذهني فقرّرت أن أكتب...

صلاح الدّين أقرقر

إهـــــداء

فكّرت مليّا لمن أهدي روايتي هذه. فقرّرت أن أهديها:

- إلى أبي العزيز
- إلى أمّي الحنونة
- إلى زوجتي الحبيبة
- إلى ابني الغالي
- إلى أساتذتي الأعزّاء
- إلى أصدقائي الأوفياء
- إلى كلّ من يشجّعني
- إلى مجانين أحبّهم

لا تجعل تحدّيات الحياة تسرق منك أحلامك، تعلّم منها وستجدها أفضل أصدقائك.

محمّد علي كلاي

الفصل الأوّل

1

استقرّ به المقام أخيراً في هذه القرية النّائية. كانت كلّ ذرّة من ترابها تعرفه، ولكنّه اختار تلك الحجرة التّرابية المهترئة نصف المسقوفة ـ الّتي تكاد تنهار في أيّ لحظة ـ ملجأ له. كانت الحجرة منزوية في الرّكن الشّمالي للقرية بجوار المقبرة، وكانت آخر ما تبقّى من معصرة قديمة للزّيتون، لتنتصب في تعنّت شامخة متحدّية قساوة الطّقس بكلّ تقلّباته على مرّ السّنين. وكانت مهجورة إلاّ من كلب ضالّ أو قطّ شريد أو حشرة متطفّلة.

كان يقضي يومه متسكّعا في أرجاء القرية، يجوب دروبها غير آبه بشيء، يرمي بجسمه النّحيل على الأرض أينما أدركه الجوع، ليفتح فاه ـ الّذي بالكاد يظهر بين شاربه الكثّ ولحيته الغزيرة الّتي أضحت شعراتها المجعّدة ملاذا آمنا لبقايا الطّعام النّاجية من جبروت أسنانه الحادّة، وعشّا دافئا لقطيرات الحريرة، حتّى بدت كلوحة فنيّة بالغة الإتقان ـ ليفتحه قاذفا فيه ما جاد به عليه هذا الطّفل أو ذلك الشّاب أو ذاك الشّيخ من طعام، طالما أنّ غير قليل من الجزع يعتريه لو تجرّأت بنت من بنات حوّاء على الاقتراب منه حيث يلوذ بالفرار وهو يلتفت نحوها ونظرات الشّرر تنطلق من عينيه كأعيرة نارية.

كان لا يكترث لشيء، ولا يقضّ مضجعه سوى أطفال القرية الّذين دأبوا ـ كما رأوا أسلافهم يفعلون ـ على مطاردته فرادى وجماعات وهم يهتفون في نشوة: "اللهّ يجيب الشتا". لتراه يركض مسرعا حتّى يكاد عقبا قدميه يلامسان قفاه وهو يجري مفزوعا على وقع غمغمات مبهمة محاولا التّلفّف ببطّانيته الصّوفية الرثّة الّتي تغطّي شعره الأشعث وأسماله البالية، لتتدلّى كانسة طرقات القرية راسمة طريقا يدلّ على أنّ "البوهالي" مرّ من هنا، دون أن يثنيه ذلك عن التّشبّث بمذياعه الصّغير الّذي ما إن يبتعد عن أذنه اليسرى حتّى تراه ينجذب إليها انجذابا كما تنجذب الفراشة لضوء قنديل.

منذ وطئت قدماه تراب هذه القرية لم يستطع أحد أن يسبر أغواره وما كان أحد ليستطيع ذلك، فالشّابّ الّذي كان يبدو كشيخ طاعن في السنّ رغم أنّه لم يبلغ بعد الثّلاثين من عمره، لم يسبق له قطّ أن نبس بكلمة سوى غمغمات لا تسمن ولا تغني من جوع. كان صمته الرّهيب يسبّب قلقا دائما للفضوليين من أهل القرية الّذين لقّبوه ب "البوهالي" لأنّهم يجهلون اسمه تماما كما يجهلون كلّ شيء عنه.

كان "البوهالي" غريب الأطوار، فتارة يرسم على وجهه الكالح ابتسامة من سكن القصور، وتارة يكفهرّ كمن يتهيّأ لزيارة القبور. وكثيرا ما تراه يحرّك شفتيه وكأنّه يهمس في أذن الزمان ليأتمنه على سرّ من أسراره الكثيرة، أو يمطّهما أو يزمّهما في حسرة بادية وهو يُقَلْقِلُ رأسه ذات اليمين وذات الشّمال متطلّعا إلى

مذياعه بكل جوارحه التي شدّت رحالها جميعا لتستقرّ في أذنه اليسرى ليبدو في النّهاية وكأنّه يحاور مذياعه في أمر جلل. كان يبدو كلقى من الزّمن القديم تحتاج زمرة من الأركيولوجيين المحنّكين حتّى تبوح بكلّ أَسرارها، أو كجثّة تجاوزها الموت منذ عقود لتبقى ملقاة على رصيف الحياة تعيش خارج الزّمان والمكان. كان تائها في الأرض لا يلوي على شيء، يقطع الأميال تلو الأميال تنبعث من جسمه النّتن ـ الّذي خاصم الماء منذ عهد بعيد ـ رائحة غريبة تخترق بطّانيّته النّجسة لتمتزج الرّائحتان مشكّلتين رائحة عطنة مقزّزة أشبه ما تكون برائحة جيفة متحلّلة تسمّم أنفاس القرية. وما إن يشرع اللّيل في بسط أجنحته على القرية قبيل المغرب بقليل، حتّى تراه يرقع في سيره يسابق خطوط النّور المتخلّفة عن نهار لملم سويعاته متواريا خلف أسوار الفناء إلى حين، رافعا بصره إلى السّماء بين الحين والحين وكأنّه يتضرّع إلى اللهّ أن يمدّ في عمر النّهار ولو لحيظات حتّى يصل إلى كوخه حيث يهرول لإشعال شمعة يبدّد بها خوفا شديدا يعتريه من حلكة المكان، قبل أن يستلقي على حصيره الممزّق البالي متكوّرا على نفسه، تكوّر الجنين في رحم أمّه، كجثّة هامدة وكأنّ أنفاس الموت تسلّلت إليه من المقبرة المحاذية لتسري في أوصاله، وليُسْلِم بعدها ما بدا من جسده للسعات الذّباب والبعوض والنّمل وحشرات أخرى مختلفة الأشكال والأحجام والّتي ألفت أن تبيت ليلها في ضيافة جسمه وهي تمتصّ في إذعان غريب منه ما اشتهت من دم هو أحوج ما يكون إليه حاجة العين الكفيفة لنور البصر إلى أن ينبلج الصّبح، ليفتح عينيه الغائرتين بخمول ويبعث بصره

الكسول متجوّلا في أرجاء الحجرة المقرفة الّتي تكاد تغرق في أكوام الأزبال المتناثرة في كلّ مكان، ثمّ يصعد ببصره ويمرّره على السّقف وكأنّه يجسّ صلابة أعمدته الخشبية الّتي نخرها تحالف السّوس والسّنين حتّى أصبحت بالكاد تحمل نفسها. كان الخطر محدقا به من كل حدب وصوب، والموت يكاد ينتشله من عالم الأحياء في أيّ لحظة، ولكنّه في كلّ مرّة يأبى إلاّ أن يتجاهله كأنّما يحسبه من الأموات، ليقوم في تثاقل يشحذ الهمم لبدء يوم جديد لا يختلف البتّة عن سابقيه بالنّسبة إليه.

منذ أن لامست قدماه أرض هذه القرية، حيكت حول "البوهالي" حكايات شتّى، ولاكت الألسن حوله إشاعات لا حصر لها ولا جدوى منها ـ مادامت تجانب عين الصّواب ـ سوى أنّها تشفي غليل الرّواة وتشعرهم بقدر غير يسير من الرّاحة النّفسية المزيّفة طالما أنّهم يحسّون ـ ولو نسبيّا ـ أنّهم حلّوا بعضا من الألغاز الكثيرة الّتي تكتنف الرّجل. كانت غيوم كثيفة من الشّكّ والرّيبة تحوم حوله، بعضها تبدّد بفعل رياح الزّمن، وبعضها الآخر لايزال متلبّدا في نفوس المرتابين. فثلّة من النّاس يعتبرونه أحمق، وآخرون يحسبونه أخرق، ومنهم من يظنّه معتوها مخبولا، بينما ترى كثير من النّسوة أنّه ممسوس أو مسحور، في حين يراه قلّة ممّن استنارت عقولهم بقليل من علم مريضا نفسيّا، أمّا بعضٌ ممّن يقدّسون الحذر على القدر فقد خالوه في البداية لصّاً أو سجيناً هارباً. ومهما كان فلا أحد يستطيع أن يجزم أبداً أنّه استطاع أن يرفع ستار الغموض عن هذا الرّجل الّذي تهاوى من مركبة الزّمان عبر سقوط حرّ ليجد

نفسه ممرّغا في وحل "البوهيميّة" من قمّة رأسه إلى أخمص قدمه، ليعيش على هامش الحياة. لا أحد بالتّحديد يعلم من أين جاء ولا كيف ولا متى وكأنّ الأرض انشقّت على حين غرّة من ملاّكها لتلفظه من جوفها كالشّبح، ليضحى بعد ذلك معلمة من معالم القرية الّتي تآلفت معه وتآلف معها وانصهر فيها انصهارا عجيبا حتّى لا يملك المرء إلاّ أن يحسب أنّها لم تر يوما فلق الصّبح من دونه.

كان دائما يحيط نفسه بسياج من وقار جعله محلّ عطف وشفقة من طرف كلّ سكّان القرية، ربّما لأنّه لم يؤذ أحدا قطّ. كان لا يعبأ بأحد، ولكنّ العين لا تخطئ أبدا انبهاره العجيب بذلك الرّجل كلّما صادفه حيث يقف أمامه متسمّرا كتمثال، فاتحا فمه في دهشة واضحة، شاخصا ببصره إليه وهو يتفحّص قسماته بعينين جاحظتين كأنّه أمام نجم هوليوديّ شهير حالفه الحظّ للقياه، لينحني أمامه في شبه ركوع قبل أن يدنو منه الهوينى خافضا رأسه محاولا تقبيل يده في مشهد ينمّ عن احترام غير مبرّر حتّى من جهة الرّجل نفسه، ناهيك عن غيره، خصوصا أنّه لم يكن من ذوي الحظوة والجاه في القرية. بيد أنّ هذا الرّجل ـ الّذي لم يكن سوى عامل بسيط في ضيعة فلاحية للّيمون بجوار القرية ـ يبدو أنّه أدمن هذا الموقف الّذي أضحى طقسا من طقوسه اليومية حيث أنّه ما إن يلمح "البوهالي" قادما من بعيد حتّى تراه يسير في اتّئاد كسلطان يترأّس مراسيم استقبال في موكب مهيب.

فما حكاية "البوهالي"؟ وما السّرّ وراء كرهه الشّديد للنّساء والظّلام وتبجيله الزّائد لذلك الرّجل الغريب وتعلّقه الغريب بالمذياع؟

أسئلة كثيراً ما دغدغت أفكاري، و طوّحت بالنّوم بعيدا عن دياري، وبقيت بقعة الأجوبة عنها شاغرة في عقلي لسنوات حتّى كدت أرضى باليأس جوابا لانتظاري. إلى أن حدث ما لم يكن في الحسبان...

2

كان يوم اثنين، وكنت قد خرجت لتوّي من المدرسة حيث أعمل أستاذا منذ سنوات في هذه القرية الّتي كلّما حاولت الانتقال منها إلاّ وتشبّثت بي تشبّث الغريق بالصّخور حتّى صرت متيقّنا أنّني سأوارى الثّرى في أرضها. دلفت راجلا صوب بيتي، وألفيت في طريقي "البوهالي" يسير ـ كعادته ـ على غير هدى فرمقته ببصري، كعادتي كلّ يوم تقريبا، وكأنّما أراه لأوّل مرّة. واصلت طريقي وأطلقت العنان لبصري ليسرح في الحقول المترامية الّتي جفّت واشتاقت للغيث اشتياق العليل للعافية، ولا عجب فقد كنّا على أعتاب فصل الصّيف مودّعين خريفا مسبوقا بخريفين طالما أنّ الشّتاء والرّبيع انسلخا من جلديهما كرها ليدثّرهما الخريف بلحافه كاسيا الطّبيعة بألوانه الباهتة. وككثير من المرّات لم أستطع أن أكبح جماح عقلي الّذي يأبى إلاّ أن يقحمني في مقارنة سخيفة مع هذا "البوهالي". صحيح أنّ كلينا انغرزت قدماه في تراب هذه القرية منذ سنين انغراز المسمار في الخشب، وصحيح أنّ كلينا يعيش وحيدا دون أنيس، ولكن هل هذه المقارنة متكافئة؟ ألهذا الحدّ أصبحت ذليلا في نظر نفسي؟! تمثّلتني للحظات لم تطل "بوهاليا" أتلفّع بأسمالي البالية متأبّطا محفظة متّسخة وأنا أشقّ طرق القرية في طواف لا نهاية له بين المدرسة والمنزل. استفقت من شرودي فشرعت أطالع هيئتي – وكأنّني أحاول أن أنتصر لأناقتي وأقهر تمثّلاتي البلهاء – فألقيت ببصري على حذائي الأنيق النّاصع البياض الّذي كنت أرتديه بدون جوارب، وتفحّصت سروالي "الجينز" الأسود قبل أن أرسو ببصري على قميصي الأبيض النّاضر. أطرقت قليلا

وتشمّمتني فعبقت في أنفي رائحة العطر الزكيّة الّتي أحرص كلّ الحرص على أن أرشّني بها كلّما هممت بالخروج. مسّدت بعدها كفي الأيسر على خصلات شعري الأملس بدءً من جبهتي ووصولا إلى قفاي وكأنّني أجسّ تصفيفه وأنا الّذي خلته قد تشعّث بفعل رياح الشّكّ والرّيبة الّتي عصفت بي منذ قليل. هندام متناسق وقدّ ممشوق. زفرت زفرة عميقة وكأنّني أفرغني من وسواس استبدّ بي لوهلة واستعددت لتنفّس هواء مفعم بثقة بالنّفس ستكون كفيلة ـ لا محالة ـ بتنزيهي عن هذه المقارنة الخرقاء.

بعد حوالي ثلث ساعة من المشي كنت قد دخلت بيتي المتواضع تزامنا مع آذان الظهر. ألقيت بجسمي المنهك على سريري في غرفة نومي محاولا اختلاس دقائق معدودات من الرّاحة ما أحوج عازبا مثلي لها. كانت هذه اللّحظة بالنّسبة إليّ أشبه ما تكون باستراحة ما بين الشّوطين بالنّسبة للاعب كرة. لحظة أحاول خلالها جاهدا أن أشحن بطّارية طاقتي المستنزفة بعد أكثر من أربع ساعات من العمل المضني. كيف لا وأنا أستاذ للمستوى الأول. أقضي جلّ أوقاتي في حضرة أطفال صغار لايتجاوز عمر أكبرهم ثمان سنوات. أطفال لم تنم بعد في حقول عقولهم بذور القانون والنّظام الّتي حاولت منذ اليوم الأوّل أن أزرعها فيها. فغالبا ما تراهم يتعقّبون خطواتي ـ كما تتعقّب الكتاكيت الدّجاجة ـ وهم يجوبون القاعة في هرج ومرج غير آبهين لتحذيراتي الّتي تذهب أدراج الرّياح. وكثيرا ما ينتهي بي المطاف وأنا أدسّ يدي في جيب محفظتي وأستلّ علبة الأقراص المهدّئة لأُكْفِئَها ويتلقّف كفّي قرص "دوليبران" قبل أن تمتدّ سبّابتي

وإبهامي ليمسكا به ككمّاشة وأغمّسه في كأس ماء منتظرا خمود فورانه لأتجرّعه على رشفتين أو ثلاث...

نهضت من سريري بتراخٍ وأنا أكبت بداخلي رغبة جامحة في النّوم، وقصدت مطبخي الصّغير. فتحت الثّلاجة وأخرجت "طاجينا" كنت قد حفظته فيها منذ اللّيلة الماضية تحسّبا لهذه اللّحظة الّتي يقف فيها الإرهاق والكسل حائلين بيني وبين أيّ محاولة لإعداد ما من شأنه إخراس عصافير بطني الّتي تشرع في الزّقزقة عادة في مثل هذا الوقت من النّهار. وضعت "طاجيني" على الموقد ورفعت عنه غطاءه. لحم بقر ممرّغ في خليط من قطع البصل المفروم وقليل من صلصة الطّماطم وقليل من الزّيت وما أمكن من توابل يشكّلون الطّبقة السّفلى الّتي دُفِنت أو كادت تحت قطع الجزر والبطاطس وحبّات الزيتون. مددت أصابع يمناي لتتكفّل بتنسيق الخضر ـ المكدّسة بعشوائية ـ كما اشتهت عيناي واأتمنت النّار على طبقي لتكمل المهمّة الّتي فشلت لمرّات في القيام بها على أكمل وجه عندما فحّمته ـ بتواطؤ غير متعمّد معي ـ لأجدني وفي غفلة منّي خسرت "طاجيني" اللّذيذ واستعضت عنه ببيضتين مقليتين في الزّيت أو علبة سردين. خطوت في تكاسل إلى غرفة النّوم وألقيت نظرة عابرة على جوّالي الّذي لفتني الضّوء الشّاحب المنبعث من شاشته وكأنّه يتوسّل إليّ في خشوع أن أربطه بالشّاحن. ولم ألبث إلاّ أن فعلت في حركة شبه آلية. جررت قدميّ بتثاقل إلى الحمّام حيث توضأت. ثمّ صلّيت الظّهر بأجفان يغالبها الكرى وبقلب جافاه الخشوع. بعد الفريضة حملت جسمي

المنهك ورميت به على السّرير وكأنّني أتخلّص من عبء ثقيل. أطبقت عينيّ فغمرتني إغفاءة كانت أحبّ إليّ من الماء البارد على الظمأ. أحسست بالرّاحة تسري في أوصالي حتّى كادت الإغفاءة الخفيفة تتطوّر إلى نوم عميق كنت سأغطّ فيه حتّى العصر لولا هواجس "الطّاجين" الّذي أودعته في يد غير أمينة. نهضت بكسل وأنا أترنّح كالمخمور، وقصدت المطبخ أو بالأحرى قصدت "الطّاجين" فرفعت عنه غطاءه، وكان قد نضج واستوى، فحملته بين يديّ ـ كما يحمل الصّقر فريسته ـ إلى غرفة الجلوس أين تناولت غذائي وأنا أتابع مسلسلا على التّلفاز. توضّأت وصلّيت العصر وحملت جوّالي واستلقيت على ظهري فطفقت سبّابتي تعبث بشاشته في خفّة وأنا أجوب عوالم الفيس والواتس واليوتيوب...

بعد لحظات بدت لي من الوهلة الأولى قليلة، تسلّل إلى أذني صوت ما لبث أن حرّك بداخلي مياها راكدة أَسنت أو كادت. هممت بالنّهوض لكنّ أصواتا أخرى كان صداها يدوي بداخلي بإلحاح تدعوني للارتواء من لذّة يزداد الظّمأ إليها كلّما وجدت أصابعي تعانق جوّالي عناق الأمّ لرضيعها تزامنا مع النّداء السّماوي: حيّ على الصّلاة، حيّ على الفلاح، لتنشب بعدها حرب ضروس في أعماقي تنتهي دائما كما انتهت اليوم بتقهقر إيماني الضّعيف أمام هواي المتأجّج. ضاعت صلاة المغرب، بل ضعت أنا.

كنت قد قضيت حوالي السّاعتين أو يزيد في محادثات سمجة قبل أن أشعر بالغرفة بدأت شيئا فشيئا تكتسي بوشاح اللّيل الأسود مثلما بدأت أشعر بالصّداع يطرق أبواب رأسي بمطارق من حديد. أنرت الغرفة وتأنّيت قليلا علّ الطّارق يعود من حيث أتى غير مرحّب به، إلاّ أنّه أبى إلاّ أن يقتحم أسوار رأسي ليحتلّ الجهة اليمنى منه. إنّها الملعونة من جديد جاءت لتكدّر عليّ صفو هذه اللّيلة الّتي برمجت لها منذ مدّة. إنّها الشقيقة. سال الدّمع من عيني اليمنى مدرارا، وأحسست بألم ملتهب وكأنّما اكتحلت بجذوة من نار. كان الألم يتفاقم شيئا فشيئا ليسيطر على شقّ رأسي الأيمن بالكامل حتّى وددت لو أنّني خلقت من دونه. ألقيت بجوّالي قسرا بجانبي. أطفأت التّلفاز وأعتمت الغرفة لتكتسي بظلام وددته دامسا لولا خيوط ضوء خفت وهيجها بعد أن نفذت من زجاج النّافذة الشّفّاف لترزح الغرفة تحت وطأة السّكينة والدّعة. أغلقت عيني اليسرى لتحذو حذو شقيقتها المغلقة مرغمة تحت قهر الألم، وتمطّيت مسترخيا ومحاولا إخلاء عقلي ـ ولو إلى حين ـ من كلّ ما من شأنه أن يدفعه لتكبّد عناء التّفكير. حاولت استجلاب النّوم بكلّ ما أوتيت من حيلة لقّنَتْنِيها حنكة اكتسبتها على مدى سنواتي الأربعين. بقيت على هذه الحالة لمدّة فاقت السّاعة حتى بدأت أحسّ بالألم ينحسر شيئا فشيئا مؤذنا باستسلامي الوشيك لنوم مبكّر بطعم الخلاص.

كنت أنتشي بلذّة تلك اللّحظة الفاصلة بين اليقظة والنّوم عندما تناهى إلى مسمعي طرق خفيف على الباب. تململت في مكاني وزفرت عميقا متأفّفا

ألعن في قرارة نفسي هذا الزّائر الّذي سوّلت له نفسه الرّعناء حرماني من لحظة صفاء ذهني عانيت الأمرّين قبل الهيمان فيها بكلّ جوارحي. عاد عقلي بالتّدريج لممارسة وظيفته في معالجة وتحليل الأفكار الّتي كان قد سرّحها سراحا مؤقّتا في لحظة الألم لأنتفض من منامي واقفا مبهوتا كمن تذكّر أمرا سيغيّر مجرى حياته للأبد. لقد أنساني الألم المشؤوم المحفوف بالعجز المؤقّت عن التّفكير موعدي مع "حليمة". تحسّست جوّالي بأصابعي أنشد إعادة التّموقع في الزّمان بعد أن كنت خارجه. كانت السّاعة تشير إلى الثّامنة ليلا وبضع دقائق. غريب! ما بالها عجّلت موعدها اليوم كما لم تفعل ولو مرّة من قبل! لم يكن الوقت أبدا مناسبا للخوض في سؤال لن تغيّر الإجابة عنه من الأمر شيئا، بل على العكس قد يستنزف وقتا ربّما يكون كافيا لعين من الأعين كي ترصد هذا المشهد النّشاز. يا لهول تلك اللّحظة! لو حدثت لذاع خبري وانتشر في القرية انتشار النّار في الهشيم حتّى يلتفّ حشد مهول من النّاس لتطويق البيت، وتتعالى بعدها عقائر الرّجال والنّساء بالصّراخ والولولة. سأكون ساعتها لقمة سائغة لكلّ من يكيدني بسوء وما أكثرهم. ستخور قواي وستتمرّغ أنفتي في التّراب وأضحى كقارض عالق في مصيدة. سيشمت بي من يضمرني العداء قبل من يجاهرني به، وعالم الغيب وحده يعلم إلى أيّ حدّ يمكن للأمور أن تسوء بعد ذلك. أجليت عن عقلي هذه الأفكار السّوداء المحبطة والّتي ما كانت أبدا كافية لتثبط عزيمتي وتردعني عمّا هممت به وأنا الّذي ابتُليت بنفس جُبلت على حبّ المغامرة وطلّقت الخوف ثلاثا منذ أمد بعيد.

هرولت صوب الباب أعزّي نفسي على ضياع لحظات نوم ودعة وأمنّيها في الوقت ذاته بلحظات نشوة جذلة في حضن خليلتي. فتحت الباب وأنا أرتّب بين شفتيّ عبارات اللّوم والعتاب الّتي سأمطرها بها بعد أن أواريها عن الأنظار وتغدو بين يديّ وديعة مطواعة كجارية تحت إمرة سيّدها. كنت أحبّ كثيرا حدّ الولع تلك اللّحظة الّتي تقف فيها أمامي ضعيفة عاجزة مذعنة كحمل وديع تحت رحمة ذئب مفترس. هي أيضا نفسها كانت تعشق تلك اللّحظة حدّ الإدمان. رفعت بصري ومددت يدي أحاول أن أطوّق عنق "حلومتي" ـ كما أحبّ وتحبّ أن أناديها ـ قبل أن ترتدّ إليّ يدي كأنّما أصيبت بصعق كهربائي. تقهقرت خطوتين إلى الوراء وتجمّدت الدّماء في عروقي للحظة وعيناي تكادان تغادران محجريهما وهما تتفحّصان بذهول الزّائر الغريب.

دونما سابق إنذار وجدتني وجها لوجه أمام "البوهالي"!

3

ظلّ واقفا بلا حراك دون أن ينبس ببنت شفة وظللت أراقبه بحذر وعيناي الحائرتان لا تزالان مصوّبتين تجاهه وكأنّهما تستدرّان عطفه علّ معجزة تحدث فيلهج كلمة تبدّد حيرة غلّفت كلّ ملامحي دون استثناء. لكنّ المعجزة لم تحدث، على الأقلّ حتّى هذه اللّحظة. استعدت رباطة جأشي وأزمعت أن أهيّئ الأرض الخصبة للمعجزة كي تحدث طالما أنّ أعصابي الواهنة لم تعد تتحمّل هذا الصّمت الفظيع الّذي ران لأكثر ممّا ينبغي حتّى حسبت أنّ زائري الثّقيل له من الطّاقة ما يكفيه ليبقى على هكذا حال إلى يوم يبعثون.

رسمت على ملامحي صرامة مفتعلة وأنا أقول:

ـ ماذا تريد؟

رميت بسؤالي وبقي بصري معلّقا بشفتيه وكأنّ خلاصي من عبء هذه اللّحظة المقيتة على أعتابهما. بقي جامدا جمود التّمثال وكأنّما يمتحن صبري الّذي بدأ ينفد. شعرت به يستفزّني فبدأت الدّماء تغلي في عروقي.

قلت وأنا أتعمّد الضّغط على الحروف:

ـ ستنطق أو سأغلق الباب في وجهك؟

لم يبد أيّ ردّة فعل تنمّ عن أنّ قلبه لا يزال ينبض بالحياة وأنّ الدّم لا يزال يتدفّق في عروقه. اتّسعت في عينيه نظرة تحدّ غريبة، واستمرّ يرمقني بنظرات لاذعة وكأنّ بيني وبينه ثأرا موغلا في القدم. لم أجد بدّا من استبدال سياسة

العصا الّتي فشلت معه فشلا ذريعا بسياسة الجزرة علّها تفكّ طلاسم هذا اللّغز المحيّر المنتصب أمامي بكلّ غموضه.

سألته متوسّلا:

ـ هل لك رغبة في الأكل؟

استدرت دون أن أنتظر منه جوابا، وأنّى له أن يجيب، فقد كان الجواب حلما بعيد المنال. توجّهت صوب المطبخ وأنا أتضرّع إلى اللهّ أن تنجح كسرة رغيف وجبن وحفنة تمر وكوب حليب في الذّبّ عن كبريائي الّذي أضحى على المحكّ. حملت طبق الطّعام وسرت كجنديّ مدجّج في سلاحه يبغي ساحة الوغى للذّود عن كرامته المكلومة. أحسست أنّني ألعب ورقتي الأخيرة... الطّعام ... وهل من شهوة قد تسيل لعاب هائم متشرّد كهذا غيره؟! لقد خلت أنّ أحاسيسه كلّها احتشدت في بطنه. تهلّل وجهي بالرّضى أخيرا وصفّقت لحصافتي الفذّة الّتي هدتني سبيل الخلاص.

قلت بنبرة واثقة وأنا أقدّم الطّبق:

ـ تفضّل الطّعام.

بقيت يداي معلّقتين في الهواء تحملان الطّبق حتّى أحسست إحساس من قرّب قربانا فلم يُتقبّل منه.

قلت محتدّا وكفّاي لا يزالان يحتضنان الطّبق:

ـ باللهّ عليك! ماذا تريد؟!

تبخّر سؤالي في عتمة اللّيل، وتراجعت لأدخل المطبخ أتجرّع مرارة الخيبة. وضعت الطّبق كجنديّ مهزوم يطرح سلاحه وسرت هرعا في اتّجاه الباب الموارب. يالحمقي الشّديد! كيف لي وأنا الأستاذ رشيد الحاصل على الإجازة في الحقوق أن يكسر شوكتي هذا الجاهل السّفيه الّذي لاريب لا يقدر على التّمييز بين الألف وعصاي الّتي أهشّ بها على تلاميذي. سأغلق الباب قبل أن يرتدّ إليه طرفه وينتهي الأمر. وقفت خلف الباب من الدّاخل، وامتدّت يميني لتدفعه غير أنّ يد "البوهالي" انبرت لتعترض سبيله في الآن ذاته. استجمعت قواي محاولا أن أعيد الكرّة مرّة أخرى بقوّة أكبر لعلّي أفلح فيما فشلت فيه للتّو، إلاّ أنّه كان قد تسرّب إلى الدّاخل في رمشة عين تسرّب الغاز في الهواء. سار يسحب بطّانيّته وراءه حتّى استقرّ في جوف غرفة الجلوس وكأنّه صديق حميم يأوي مجلس سمّار. أغلقت الباب ورائي وسرت على إثره مذعورا فاغر الفيه وقد افترش الذّهول سحنتي من هذا الزّائر غير المرغوب الّذي تعامى عن كلّ حدود اللّباقة وسمحت له نفسه الخسيسة باقتحام بيتي بهذه الطّريقة الجلفة. ولجت الغرفة وبلغ ذهولي مداه وأنا أراه قد تخلّص من بطّانيّته وأقعى إقعاء الكلب باسطا يديه باستقامة إلى الخلف ومستندا بكفّيه إلى الأرض المفروشة بسجّاد أزرق وممدّدا ساقيه إلى الأمام وساقه اليمنى تعتلي اليسرى وكأنّه في لحظة استجمام على الشّاطئ. رمقته بنظرة تشي بحنق يتجاوز حدود الجلد، ولكنّني ما فتئت كظمت غيظي وتمالكت عنوة أعصابي الفائرة وكأنّني غمرتها في دلو ماء بارد خشية ارتكاب جرم كنت على أعتاب اقترافه. وضعتُني في

وضع الجلوس على الكنبة وأسندت مرفقيّ إلى المنضدة أمامي واختفى خدّاي وذقني في أحضان كفّيّ وحدجت غريمي بنظرة يائسة خانعة. هيمن الصّمت الرّهيب لفترة.

قلت بعدها بصوت خفيض كالفحيح وكأنّني أناجي نفسي:

ـ أتعلم؟! صدق من قال أنّ المصائب لا تأتي فرادى، إنّها كالعقد، متى انفلتت منه خرزة تتابعت الأخرى بالانفلات بكلّ سلاسة. الشقيقة بكلّ وجعها ثمّ أنت وما أدراك ما أنت بكلّ ما يعتريك من غموض. ومتى؟! في هذه اللّيلة بالضّبط. ثمّ لا أدري ماذا بعد؟ أشتمّ في الأجواء رائحة غريبة تشي بليلة عويصة. ليلة كان من المأمول أن تكون بطعم العسل، ولكنّك علقمتها فصارت بطعم الحنظل.

تنهّدت تنهيدة عميقة أودعتها خيبتي العظيمة هذه اللّيلة، وتناولت جوّالي أنظر إلى السّاعة ثمّ ما لبث أن وضعته لأعيد بصري حيث مكمن دائي لأواصل مناجاتي بنبرة متهكّمة:

ـ شتّان بينكما! سبحان من خلق المتناقضات! الجنّة والجحيم، الحلم والكابوس، الحسن والدّمامة، الشّجاعة والجبن. قل شيئا! لا تنظر إليّ بتلك النّظرة الجوفاء الّتي تصيبني بالغثيان. أعلم أنّ عقلك الضّئيل لا يستوعب هذا الكلام. ولكن صدّقني، يجب أن ترحل بسلام الآن وتدعني لما أنا أهل له.

ـ لن تأتي أيّها الأستاذ الجهبذ.

قالها بسخرية وقد ازداد تغضّنا جبينه المتغضّن أصلا بفعل محراث الزمان وكأنّني به وعى كلّ حرف لفظت به.

تملّكتني الدّهشة ولمّا يكمل كلامه بعد. كيف لا وقد حدثت المعجزة. لقد نطق! أعرته انتباهي كلّه واستويت في جلستي أتابع عن كثب تفاصيل المعجزة لحظة بلحظة وأنا أرقب بفارغ الصّبر تتمّة كلامه. ولكنّه كان قد اكتفى بكلماته الشّحيحة تلك وكأنّه عالم يضنّ عليّ بعلمه الغزير. ركن إلى سكوته مرّة أخرى ما منحني فرصة سانحة للتّمعّن في كلماته. تلقّفت الفرصة تلقّف الجائع للقمة طعام. صعقت واتّسعت عيناي دهشة وشرعت تساورني الشّكوك حول فحوى كلامه، لا، بل حول كلامه من الأصل. هل تكلّم؟! وهل يعني دلالة ما يقول؟! أم أنّه مجرّد سفيه يخبط خبط عشواء؟! مجرّد سفيه ألقى بكلام عارض فالتقطته أذناي في غفلة من دماغي لتحوّره تماشيا مع نواياي السّيّئة. أكيد هو كذلك، مجرّد معتوه أخشى ما أخشاه أن ألقّنه الرّشق بالحجارة فأكون أولّ من يحذفني بها. أخشى أن أبوح له بسرّ ما كان أبدا ليخطر بباله. "خذوا الحكمة من أفواه السّفهاء" مقولة تردّدت على مسامعي في مناسبات شتّى. لم أؤمن بها أبدا يوما ولست مستعدّا البتّة لتحريف بوصلة إيماني ذاك لمجرّد خزعبلات واهية. الحكمة الحقّة الآن تقتضي أن أتغاضى عن هذا الهراء الّذي لا مسوّغ منطقي لي للتّمادي فيه للنّهاية الّتي قد لا تروقني. ولكن ماذا لو أتت "حليمة" فعلا وهذا هو الأمر الأقرب للتّحقّق، فهي لم تتخلّف أبدا يوما عن موعد ضربته لي.

وجدتني حائرا أتخبّط بين خيارين كلاهما مرّ. خياران أم انتظاران؟! ربّما قدران، لأنّ الخيار لابدّ أن يكون مصحوبا بهامش كبير من الحرّية لاتّخاذ القرار. وأنا لا أملك الحرّية ولا أملك القرار. فأنا إذا أمام انتظارين مريرين: إمّا أن تأتي فيُشاح اللّثام عن سرّي الدّفين وأتعرّى أمام هذا المخبول الّذي ما كنت أبدا لأهابه لولا أنّه نطق، وإمّا ألاّ تأتي فتتحقّق نبوءته الّتي لم أكن أبدا لأجد لها تفسيرا منطقيّا يستسيغه عقلي. ركّنت فلسفتي العقيمة جانبا إلى حين وطالعت السّاعة في جوّالي. تنهّدت تنهيدة توحي بامتعاضي الشّديد.

ـ لن تأتي. صدّقني.

قلت متجاهلا كلامه ومحاولا الإمساك بدفّة الحديث بإحكام:

ـ تتكلّم إذا؟!

توارى خلف صمته ثانية بعد أن رماني بكلماته الملغومة تلك. في خضمّ تفكيري العميق في فكرة من شأنها تخليصي من أغلال أحكم تقييدي بها هذا "البوهالي"، برقت في ذهني فكرة منحتني بارقة أمل. قلت في نفسي وابتسامة فاترة تطفو باحتشام على وجهي: "لازلت أملك الحرّية، لازال القرار بين يديّ". أخذت جوّالي وطفقت أكتب رسالة نصّية قصيرة إلى "حليمة". سأكون سيّد قراري ولن أمنح هذا الأحمق أدنى فرصة للعبث بقدري. لن تأتي "حليمة" ولكنّها ستحجم عن المجيء بأمر منّي وليس بسبب نبوءة هذا الأحمق الّذي تقمّص شخصية منجّم متمرّس.

لطمني صوته وهو يقول:

- قلت لك لن تأتي "حليمة" اللّيلة.

رفعت إليه بصري مستغربا.

استطرد مسهبا في الحديث:

ـ صفاء الذّهن من أولى أبجديات التّفكير السّليم، وأنت قد أنساك فكرك المشوّش أن حليمتك ترزح تحت وطأة الأميّة ولن تتراءى لها حروف رسالتك إلاّ كخربشات غير ذات معنى. ذهنك يا صديقي ينوء به حمل ثقيل لا طاقة له به. المسألة معقّدة لأبعد الحدود، تتجاوزني وتتجاوزك، بدأت كبذرة صغيرة لا تكاد تُرى ألقاها أحدهم لتنمو بعد ذلك وتتشعّب أغصانها حتّى بلغت عنان السّماء.

تخلّى عن إقعائه ونهض متثاقلا ناصبا قامته القصيرة وعاقدا يديه خلف ظهره كقائد يتفقّد جنده قبيل معركة حاسمة.

واصل مطنبا في كلامه، وهو يذرع مساحة الغرفة الصّغيرة ذهابا وجيئة، وأنا أرقبه بدهشة وكأنّ ذهول الكون كلّه قد حطّ رحاله على وجهي:

ـ مخيّر أنت أم مسيّر؟ لا تنهك نفسك بتفكير لا طائل من ورائه. علماء الدّين كما الفلاسفة أبحروا عميقا في الموضوع منذ القدم دون أن يصل أحدهم إلى شاطئ يرسو عليه بإجابات مقنعة للجميع. أن تكون مخيّرا فلا معنى للقدر، وأن تكون مسيّرا فلا معنى للثّواب والعقاب بعد الموت. نحن مؤمنون وإيماننا

الرّاسخ يجعلنا ننأى بأنفسنا بعيدا عن الشّبهات ونرمي بها في خضوع في حضن اللهّ جلّ جلاله الّذي يقول:

{ قل إنّ صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله ربّ العالمين }. أظنّ أنّ عقلك الرّاجح يستطيع فهم كلام هذا المخبول.

أنهى كلامه وجلس على الأرض مسندا ظهره إلى الجدار كخطيب فرغ من خطبته.

قلت مُستهزئا:

ـ عن أيّ فهم تتحدّث أيّها الشّيخ الجليل؟! أم تراك تحبّ أن أناديك بالمنجّم الخرّاص؟! صدّقني، لو قدّر للغموض أن يتمثّل في هيئة إنسان لما اختار سواك دونا عن سائر البشر. فلتعلم أيّها الشّيخ الوقور أنّ الغيب بيد الله وحده وأنّ المنجّمين أمثالك كاذبون ولو صدقوا.

ضحك ملء شدقيه وقال بسخرية وكأنّه يردّ لي الصّاع صاعين:

ـ لم تأت بجديد أيّها الأستاذ العفيف. معلوماتك القيّمة معروفة بالضّرورة لكلّ من لم يضع بعد قدمه الأولى على سكّة العلم الشّاقة.

الأستاذ العفيف!... أحسست أنّه قرع طبول الحرب. وشعرت وكأنّني سأخوض غمار حرب لا قبل لي بها. انتابني شعور مخزٍ بالهزيمة منذ البداية. وكيف لا أُهزم وأنا أكاد أجزم أنّني أواجه بظهر مكشوف خصما محصّنا في قلعة أسوارها التّعمية والإبهام. صعب جدّا أن تقارع خصما يقرؤك بسلاسة ككتاب

مفتوح بينما تعجز أنت عن فكّ طلاسمه كمخطوط هيروغليفيّ قديم من ميراث حقبة ما قبل الميلاد. سأتلقّى الضّربة إثر الأخرى وسأُثخَن بالجراح وسأنكفئ صاغرا ذليلا أتجرّع كؤوس المهانة. وما أحقرها من مهانة عندما تكون من حقير كهذا!

آثرت الصّمت لفترة وكأنّني أستريح استراحة محارب انهزم في معركة ويشحذ الهمم تأهّبا لأخرى. أسلمت عقلي لتفكير عميق قادني للجزم بأنّني قد نجحت أخيرا في وضع سبّابتي على مكمن الدّاء. لابدّ لموازين القوى أن تتكافأ وإلاّ فهزيمتي ستكون حتميّة بدون أدنى شكّ، ولن يتأتّى لي ذلك إلاّ إذا برعت في اختيار طعم يسيل لعاب خصمي اللّدود ويدفعه دفعا للتّخلّي عن حذره المغالى فيه. لا مناص من جعله يشرّع أبواب قلعته الموصدة كي أتغلغل فيها أو يخرج إليّ حتّى أستطيع أن أرفع ستار الغموض المسدول عليه، وتنقشع غيوم التّعمية المتلبّدة من بين يديه ومن خلفه فينكشف أمامي واضحا جليّا كقمر في ليلة الرابع عشر. وحينذاك سأنيط بي أمر تأديبه، وعلى عاتقي سأحمل مسألة الثّأر لكرامتي المخدوشة. يبدو أنّه يعرف عنّي كلّ شيء كأنّه ظلّي الّذي يلازمني حتّى في دجنة اللّيالي. كلماته الّتي سمّ بها مسامعي ووخز بها ضميري عمدا تشي بذلك. خطّتي الجديدة تنبني على أعمدة ثلاث: المباغتة وعدم الاكثرات وكشف المستور، فكلّما غاليت في إظهار خوفي من انفضاح أسراري ـ الّتي ما عادت كذلك بالنّسبة إليه على الأقلّ ـ إلاّ واشرأبّ متعجرفا مزهوّا

بالزّلاّت الّتي يمسكها عليّ. فلأتحدّث على المكشوف لأحرمه من تلك النّشوة وأخصم من رصيده نقاطا أعزّز بها رصيدي الخالي من النّقاط.

فاجأته بالقول:

ـ "حليمة" حبيبتي منذ سنوات خلت. هي بقعة الضّوء الوحيدة الّتي تنير لي سدفة ليالِيّ في هذه القرية الجدباء. قريبا جدّا ستصبح زوجتي. هذا كلّ ما في الأمر.

ـ نصف الحقيقة.

ـ بل هي الحقيقة، كلّ الحقيقة.

ندّت عنه ابتسامة ماكرة وهو يزمّ شفتيه ويحرّك رأسه يمنة ويسرة علامة التّأسّف وهو يقول:

ـ مخادع حتّى مع نفسك!

ـ ماذا تقصد؟

استغرق في الضّحك ثمّ قال:

ـ عادة يستعصي على دماغي ادّخار النّوادر لفترات طويلة، ولكنّك الآن ذكّرتني بنادرة طريفة ربّما ظلّت مترسّبة في مكان ما في قعره تنتظر من يدغدغها لتستفيق من سباتها العميق، فكنت أنت من تكفّل بالمهمّة. يحكى أنّه كان هناك تاجر ثريّ جدّا جمع مالا لبدا لا يكاد ينفد ولو قضى عمره كلّه يلقيه في فوهة تنّور متوقّد. ولكن برغم غناه الفاحش إلّا أنّه كان بخيلا شحيحا لا تكاد تندّي

إحدى يديه الأخرى. كان الجميع يشتكي بخله الشّديد حتّى أهله الّذين بالكاد يجود عليهم بما يقيم أودهم، إلاّ أنّ هذا البخل كان يتهشّم تحت قدمي زوجته الفاتنة الّتي كان يغدق عليها بشتّى أصناف المجوهرات الباهظة الثّمن. وذات يوم ـ ولأنّه جشع جَشَعَ البحر الّذي لا يشبع مهما ابتلع ـ تاجر الرّجل بماله كلّه غير أنّ تجارته هذه المرّة ـ وعلى غير العادة ـ بارت فخسر خسرانا مبينا حتّى غدا من أفقر القوم. غمّ الرّجل غمّا شديدا وانبطح ذليلا يتجرّع مرارة الحزن والكمد اللّذين كادا يفتكان به. وذات ليلة وبينما كان طريح الفراش يعضّ أنامله غيظا وندما على ماله الضّائع، إذ بزوجته الحسناء تنتصب أمامه حاملة صندوقا حوى كلّ ما ملكت من مجوهرات كنزتها على مدى سنواتها الّتي قضتها معه.

قالت له بحنوّ وهي تجلس على طرف السّرير واضعة الصّندوق أمامه:

ـ هذا الصّندوق يحوي ثروة ضخمة، أكيد أنّها لا تعادل ما خسرته، إلاّ أنّها ثروة لا يستهان بها ستكون لا محالة حجر الأساس الذي سيمكّنك من استرداد ثروتك وأكثر خصوصا أنّك تاجر لا يُضاهى في الشّطارة.

ابتسم الرّجل ابتسامة بائسة وقال بيأس:

ـ أعجب العجب أن يصدّق المرء أنّ البخيل يمكن أن يستحيل يوما ما جوادا كريما. كلّ المجوهرات الّتي أهديتك مقلّدة وليست حقيقيّة ولا يكاد ثمنها يساوي ثمن الصّندوق الذي صينت فيه.

اكتشف الرّجل متأخّرا أنّه كان يتفنّن في خداع نفسه، وتمنّى لأوّل مرّة لو كان جوادا. سياسة نصف الحقيقة غالبا ما تكون عواقبها وخيمة في نهاية الأمر. وأنت أيّها الأستاذ الطّاهر ألا تريد أن تبوح بالحقيقة كاملة؟

أجبت وأنا أحملق فيه:

ـ ولكنّني أخالك تعرف الحقيقة!

أجاب بثقة بدّدت كلّ ذرّة شكّ كانت لا تزال تشوبني:

ـ نعم.

ـ بل أخالك تعرف ما وراء الحقيقة!

ـ ربّما.

حدّجته بنظرة متذمّرة وقلت متسائلا:

ـ ألا ترى أنّك تكيل بمكيالين؟

أجاب من فوره:

ـ لا، أبدا ...

قاطعته موحيا له بعدم رغبتي في سماع بقيّة حديثه وقلت محتجّا:

ـ تتحصّن منيعا خلف أسوار غموضك، ولكنّك على النّقيض من ذلك تماما تتسوّر الجدار وتشرئبّ متطاولا على أعراض النّاس ومتلصّصا على عوراتهم، أيّ عدل هذا أيّها ال...!

رفع يده مشيرا إليّ بكفّه للكفّ عن الكلام بالتّزامن مع ذلك الصّوت الرّخيم الّذي تسلّل إلى الغرفة باسطا عليها أجنحة السّكينة والدّعة، وواضعا حدّا للأجواء المشحونة الّتي لوّثت فضاءها، مؤذنا بدخول وقت صلاة العشاء. هبّ من جلسته المرتخية كالملدوغ وتربّع في جلوسه ثانيا رجليه تحت فخديه مخالفا لهما، وأطرق فشرعت شفتاه تفرجان في خشوع عن كلمات خافتة متناغمة تناغما عجيبا مع صوت الآذان الّذي يأتي من بعيد. حرصت عيناي على مراقبة المشهد في خشوع مصطنع.

فرغ من همهماته ورفع سبّابته علامة التّوحيد وهو يردّد بصوت مسموع والخشوع ذاته يكسو ملامحه:

ـ لا اله إلاّ الله وحده لا شريك له. اللّهم ربّ هذه الدّعوة التّامّة، والصّلاة القائمة، آت سيّدنا محمّد الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الّذي وعدته إنّك لا تخلف الميعاد.

رفع كفّيه إلى السّماء في وضع الدّعاء وأطلق العنان لشفتيه للرّقص وفق إيقاع لا يتقنه إلاّ تقيّ ورع. ثمّ ما لبثت شفتاه أن توقّفتا عن الرّقص فجأة ليجمع كفّيه ويمسح بهما جميع وجهه ليهبّ بعدها واقفا في خفّة يُحسد عليها ويقول باقتضاب شديد:

ـ الوضوء.

أشرت بسبّابتي في اتّجاه الحمّام وشفتاي ترفض إحداهما ملامسة الأخرى من فرط الدّهشة. توارى عن نظري بيد أنّ سمعي أبى إلاّ أن يتعقّب كلّ حركاته وسكناته. سمعت صرير الباب وهو يفتح ويغلق وماء الوضوء وهو يسكب، وشعرت بالدّماء تتجمّد في عروقي والبرودة تسري في أوصالي وكأنّني قد نُفِضَ عليّ ماء مثلّج في يوم زمهريريّ.

أحسست بعجز فظيع يهيمن على أطرافي وكأنّني حُقنت بمخدّر وأنا أراه وهو يقترب منّي في رشاقة ويقول بحزم:

ـ السجّادة.

رمقته بنظرة منكسرة وكأنّني أستدرّ شفقته وما ملكت إلاّ أن لوّحت بيدي شبه العاجزة عن الحركة والّتي احتاجت مؤازرة من صوتي الّذي خرج ذليلا مُتهدّجا وأنا أقول:

ـ هناك...قرب التّلفاز.

استدار وسار بخطى رصينة نحو هدفه. حمل السّجّادة ورجع إلى مكان غير بعيد منّي حيث بسطها على الأرض مستقبلا القبلة، يعرفها تماما كما أعرفها، وطفق يفتتح صلاته. رفع يديه حذو منكبيه وكبّر وقرأ الفاتحة بصوت خاشع متذلّل قبل أن يتلو قوله تعالى: {فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصّلاة واتّبعوا الشّهوات فسوف يلقون غيّا} فركع... وأحسست بوقع ركوعه كطعنة خنجر حادّ نفذت إلى صدري فشجّته شجّا حتّى شعرت بألمها

يسحق ضلوعي ويكتم أنفاسي لتندّ عنّي شهقة فضحت ما ألمّ بي من ألم لا يُطاق. جرحي كان غائرا جدّا، ولم أكد أستوعب عمقه حتّى تناهى إلى مسمعي صوته وهو يقرأ في ركعته الثّانية قوله تعالى {والزّاني والزّانية فاجلدوا كلّ واحد منهما مائة جلدة، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين اللهّ إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر}.

تطلّعت إليه بنظرات صاغرة ولسان حالي يقول: الضّرب في الميّت حرام. أشحت بوجهي عنه في سهوم وسرح بصري شاردا في الفراغ، واستسلمت في خنوع لتقريع ضميري الّذي يبدو أنّه استفاق لتوّه من سباته العميق. ضمير لطالما حاول إعلان الثّورة عليّ، وأنا الّذي كنت قد وأدته وأداً منذ زمن بعيد، ولكنّني كنت دائما أنجح نجاحا باهراً في خمد ثورته تلك في مهدها متسلّحا بشجاعة أقرب ما تكون إلى الحماقة، ومستسلما لرغباتي ونزواتي الّتي كنت لأجد لها مبرّرا معقولا لو كنت في مرحلة شبابي الأولى. مرحلة تتّسم غالبا عند معظم الشّبان بالطّيش والنّزق والتّوق للمغامرة والمجازفة تمرّدا على الطّفولة واستعراضا لعضلات رجولة مبكّرة يراد استدعاؤها وإثباتها بكلّ الوسائل الممكنة حتّى ولو كانت تُضادّ العقل والمنطق والتّقاليد والأعراف، بل وحتّى الدّين نفسه. ولكن وأنا في هذا السّن، في منتصف العمر تقريبا، حيث من المفروض أن يكتمل العقل نضجا كما يكتمل القمر في منتصف الشّهر العربيّ، فليس من السّهل أن أجد مسوّغا يسوّغ لي ذلك. غصت في لجّة من الوجوم وأنا

أسترجع شريط ذكرياتي الّذي ما وجدت بين ثناياه محمدة أفتخر بها في قرارة نفسي المهزومة، وألملم بها قواي الخائرة، وأضمّد بها ثقتي المكلومة.

كان قد أنهى صلاته حينما وجدتني أضع يديّ كلتيهما على رقبة ضميري المتمرّد محاولا خنقه من جديد وإعادته إلى عالم الأموات. فلا طاقة لي بعذاباته المؤلمة، فأنا لا أدري إلى أين قد يقودني هذا الضّمير إذا عمّر طويلا في عالم الأحياء.

طوى سجّادته وأعادها حيث كانت، ثمّ اتّخذ مكانا بجواري على الأريكة وأرسل نظراته الحادّة لتخترق عينيّ المكدودتين وقال بلهجة جادّة:

ـ الآن يمكنك أن تكمل كلامك.

كنت أهزّ ساقيّ وأعضّ على شفتي السّفلى في عصبيّة بادية أظنّها منحت غريمي ما يكفي من الأسباب للانتشاء. ربّما كان الأجدر بي أن أكظم غيظي وأضمر حنقي وأمتصّ عصبيّتي، ولكنّ الموقف الضّعيف الّذي وضعني فيه جعل السّيطرة على أعصابي مسألة صعبة جدّا صعوبة السّيطرة على كلب مسعور. وحتّى لو خلتني بلغت من ضبط نفسي مبلغا عظيما كإنجليزيّ باردة دماؤه حدّ التّجمّد، إلاّ أنّ الرّائحة المقزّزة العفنة الّتي ضاقت عليها الغرفة حتّى لم تجد غير أنفي المسكين لتحتلّه، حتّى شعرت أنّ رأسي بدأ يتصدّع على حين فجأة، أحسب أنّ هذه الرّائحة وحدها كفيلة بتكدير صفو الإنسان ـ أيّ إنسان ـ ولو كان في ذروة فرحه. لم تكن الرّائحة الزّنخة وحدها سبب مأساتي، فكل

سلوكات هذا الرّجل الغامض الجالس بقربي كخزنة مقفلة بإحكام، ومنذ تهجّم علي متسلّلا إلى داخل ببتي تسلّل قطّ جائع، كلّها كانت تستفزّ أعصابي وتدعوها للفوران. كنت قد فقدت حبل الحديث على إثر الطّعنات الّتي وجّهها إليّ بدون أدنى رحمة، والآن يطلب منّي بكلّ صفاقة أن أُكمل! بدوت شاردا للحظات تتراقص الأفكار في عقلي تراقصا أقرب إلى التّرنّح حتّى أنّني لا أكاد أُمسك بفكرة حتّى تنفلت منّي كما تنفلت السّمكة من يد صيّاد مرتعش. خيّم الصّمت الّذي إن كان لابدّ أن يوحي بشيء فإنّه لا محالة يوحي بحالة الارتباك الّتي كنت أتخبّط فيها. ماذا يضيره هذا "النّتن" لو ...

قاطعني وهو يضحك باستهجان ملء حلقه وهو يقول وضحكته تفتر رويدا رويدا:

– حسنا أيّها الأستاذ الفطن، لا عليك، سأساعدك. كنت أظنّ أنّ ذاكرتك قويّة لكن لا بأس. قبل الآذان كنت تنشد العدل. اتّهمتني بالكيل بمكيالين، وكنت على وشك أن توسعني شتما. بالمناسبة أليس في جعبتك سوى الشّتم؟! هه ...تكلّم...

قلت وابتسامة متهكّمة تكسو وجهي:

ـ كان حريّا بي أن أستقبلك بالأحضان والزّغاريد والورود. يبدو أنّك تملك ذاكرة سمكة فنسيت أنّك تهجّمت عليّ واقتحمت بيتي بدون استئذان ضاربا كلّ آداب الكياسة عرض الحائط.

ابتسم بسخرية وقال:

ـ أنت أيضا ممّن يظلمون ذاكرة السّمك. فلتعلم يا أستاذي أن ذاكرة السّمك قد تصل إلى 12 يوما وليس إلى ثوانٍ معدودات كما يظنّ أمثالك.

قالها واستغرق في ضحك هستيري.

ـ أووووووووووووووف...

كنت أسائل نفسي بتضجّر هل الوقت مناسب لسماع محاضرات عن السّمك؟! صحيح أنّني أُحبّ السّمك، ولكن ليس بطريقة هذا الأبله. لا يهمّني إن كانت ذاكرته قويّة أو حتّى كان مصابا بالزهايمر. كلّ ما يعنيني أن أتمتّع بأطباقه اللّذيذة...

تفرّس في وجهي لبرهة ثمّ قال:

ـ بالمناسبة، هل من عادتك أن تتقاعس عن إكرام ضيوفك؟ أم والحالة أنّني الضّيف فهذا استثناء؟

زفرت زفرة من الأعماق ووثبت واقفا وخطوت خطوات متسارعة صوب باب المنزل. فتحته وخرجت، دسست كفّي في جيب سروالي وأخرجت علبة السّجائر، أخرجت سيجارة في عجل وأشعلتها فشرعت ألتهمها في نهم وشراهة وأنفث دخّانها بعيدا، مثلما تمنّيت أن أنفث هذا الأخرق القابع في بيتي إلى ما وراء الطّبيعة حيث اللّاعودة...

أنهيت سيجارتي الأولى ورميت بعقبها على الأرض، فسحقتها بباطن قدمي سحقا وبالغت في ذلك كلّ المبالغة، وكأنّني أسحق حظّي التّعس الّذي قاد لي هذا المخبول ليعكّر عليّ نشوة هذه الليلة وليقبع في عقر داري كصندوق قمامة يبعث على التقزّز والاشمئزاز.

جمجمت أحدّث نفسي وأنا أركل الهواء بقدمي ركلا عنيفا يوحي بما اعتراني من ضيق وانزعاج:

ـ اااه ...يظلمون ذاكرة السّمك! فلتذهب إلى الجحيم أنت والسّمك.

ضربت بقبضة يدي بعنف على فخذي وسرت أخطو خطوات لا طائل من ورائها سوى أنّها تغنيني ـ ولو إلى حين ـ عن مماحكة مملّة سمجة مع مجادل حقير لن أبتهج سواء أفحمته أو العكس. أخطو ذهابا وجيئة قرب الباب الموارب وأفكار لا حصر لها تنقف في رأسي، كما ينقف الكتكوت في البيضة، دون أن تفلح إحداها في تخطّي حدود العقل لتتجسّد على أرض الواقع. لم أكن أعاني شحّا في الأفكار، بل على النّقيض تماما، كنت في تلك اللّحظة الّتي تتزاحم فيها الأفكار حدّ الاختناق حتّى ينقضي الوقت دون أن يتمكّن المرء من حسم قراره وانتقاء الفكرة المواتية. استسلمت للشّرود وأرسلت بصري ليتجوّل في الظّلام الّذي أرخى سدوله على القرية والّذي لم تتمرّد على سطوته سوى خيوط الضّوء المنبعثة على استحياء من هذه النّافذة أو تلك من البيوت القليلة الّتي ترفض الخضوع مبكّرا لسلطة النّوم. ولم أكن لأترك الفرصة تمرّ

دون أن أشخص ببصري إلى منزل "حلومتي" والّذي لم يكن يبعد عن بيتي سوى بسبع وعشرين خطوة. عددتها خطوة خطوة ذلك اليوم عندما خرجت من بيتي وعبرت الطّريق مارّا بتلك القطعة الأرضية العارية الّتي لا يُعرف لها صاحب فأضحت مرتعا للنّفايات بشتّى أنواعها وأصنافها. قصدت بيتها في الظّاهر ذلك اليوم للإطمئنان على صحّة أختها الصّغرى المريضة والّتي كانت تلميذة عندي، بينما في الحقيقة كنت ذاهبا أبتغي دواء لقلبي العليل، وما كان ذلك الدّواء سوى نظرات حانية من عيني طبيبتي الحنونة. حدّقت طويلا في ذلك البيت الإسمنتي حديث البناء غير المكتمل، والمكوّن من طابق سفلي وسترة قصيرة لا تكاد تستر شيئا، والمشيّد في بقعة صغيرة على أنقاض بيت ترابي واسع. كانت البقعة الصّغيرة تلك كلّ ما ورثه "سي الحسن" أبو "حليمة" عن أبيه الّذي خلّف وراءه ابنين آخرين وبنتين. كان الضّوء لا يزال يسطع شاحبا من زجاج النّافذة الوحيدة للمنزل شحوب وجهي في هذه اللّحظة بالذّات وكأنّه يرثي لحالي. أشعلت سيجارة ثانية وطفقت أدخّن وعيناي لا تزالان ترمقان منزل "حلومتي" بنظرات ظمآى متودّدة. ساءلت نفسي: ماذا لو جاءت الآن؟ أكيد كنت سأفرح أشدّ ما يكون الفرح لولا ذلك الوغد الّذي يرابط في منزلي بكلّ خسّة. أعرف تمام المعرفة ما سأفعل ـ بكلّ الحيثيات ـ معرفتي بجزئيات درس أقدّمه أمام تلاميذي. كنت سأفتح لها بعد أن يتناهى إلى مسمعي صوت ثلاث نقرات خفيفة على الباب، فأطوّق عنقها بذراعي وأسكّر الباب وراءنا لتمتدّ كفّي لتنزع عنها قبّ الجلباب الرّجالي الذي

تلتفع به ـ درءً لانفضاح أمرنا ـ قبل أن تشرع أصابعي في العبث بشعرها السّبط بتلذّذ وأنا أقول مازحا:

ـ تبدين بهذا الجلباب كإمام مسجد يهرع ليؤمّ المصلّين.

ودون أن أنتظر منها جوابا أقول بمكر وبصوت خفيض تسري فيه رعدة لذيذة ونحن نجلس على طرف السّرير في غرفة النّوم:

ـ تعالي يا "فقيهتي" لنصلّي معا في محراب الحبّ.

تندّ عنها ابتسامة خجولة وهي تقول بغنج ينبئ بأنّ الإبتسامة الخجولة تلك لا تعدو أن تكون إلاّ زيفا:

ـ رشيد... حبيبي... متى سنتزوّج؟

أحرّر عنقها من ذراعي وأصالب يديّ خلف رأسي وأنفخ مشيحا ببصري بعيدا عنها متظاهرا بغير قليل من التّضجّر وأقول:

ـ أبعد يوم شاقّ مضن مع عفاريت صغار لا يعرفون من براءة الأطفال إلّا الاسم، أبعد هذا كلّه وبعد أن منّيت نفسي بلحظات من القصف واللّهو والسّلوى، بعد هذا وفي جوف اللّيل تحدثينني عن الزّواج؟!

ثمّ أردف بنبرة متودّدة بعد أن أعيد ذراعي لتطوّق عنقها وأصابعي لتعبث بشعرها:

ـ حبيبتي..."حلومتي"...أنا أعرف أنّ والديك يلحّان عليك للزّواج بابن عمّك، وأعرف أيضا أنّك لا تحبّينه بل تحبّينني أنا كما أحبّك. تعلمين علما

لا تشوبه ذرّة شكّ أنّ زواجك من ابن عمّك ذاك مستحيل بعد الّذي حصل بيننا. فما الدّاعي لهذا الكلام؟ أمّا بخصوص إلحاح والديك فلن تعدمي الأسباب والمبرّرات الّتي ترفضين بها هذا الزّواج. صغيرة...لا أريد الزّواج...لا أحبّذ زواج العائلة... أمّا فيما يتعلّق بزواجنا فلا أطلب منك سوى إرجاء الأمر لبعض الوقت إلى أن أنتهي من تجهيز العشّ الّذي سنغرّد فيه ألحان حبّنا الشّجيّة وكلّ شيء سيكون كما تشتهي حلوتي.

وتقول بدلال وكأنّها تتسوّل مزيدا من الإطراء والمديح:

ـ ورشيدة! لقد رأيتكما بأمّ عيني ذلك اليوم تتبادلان الهمسات وتضحكان في مجون مستفزّ، ناهيك عن أنّ أذنيّ التقطتا أخبارا تفيد بقرب زواجك منها.

أجذبها بمنتهى الحنان بذراعي الّتي كانت تطوّق عنقها، كما يطوّق الخاتم الأصبع، حتّى تتوسّد كتفي وأقول بصوت كالحفيف:

ـ يا لحمقك العجيب!

ثمّ أُضيف بعد أن أمسّد بكفّي على خدّها الغضّ المتورّد:

ـ أَحريّ بفاتنة مثلك أن تغار من دميمة كتلك؟! إنّني بالكاد أستطيع النّظر في وجهها القبيح، ولولا أنّني أكتري هذا البيت من عند أمّها ما كنت أبدا لأكلّف نفسي عناء النّظر في وجهها. ثقي بي يا فاتنتي الحسناء، يستحيل لمن

تذوّق طعم العسل أن يرضى بغيره طعاما. اطمئنّي غاية الاطمئنان، فلا توجد بنت حوّاء تسدّ مسدّك.

وقبل أن تتفوّه بكلمة أضع كفّي على شفتيها بلطف وأهمس في أذنها بصوت ملتهب:

- والآن، اِنضي عنك هذا الجلباب وهلمّي نصلّي صلاة اللّيل.

ولا تملك إلاّ أن تستسلم والابتسامة الخجولة تعود ثانية ليزدان بها وجهها البهيّ وكأنّما كلامي أرضى غرورها، بل وخدّر عقلها حتّى يبلغ منها التخدير أن تتكرّم بسخاء وتتجرّد من كلّ ملابسها لتشرع شفتاي بالطّواف على وجهها البضّ ويُسْمَعَ صوت طرقعات قبلاتي عليه كأنّه الزّغاريد، قبل أن تتمدّد على السّرير مضطجعة على ظهرها بعد أن استرخت أوصالها لنتمرّغ بعدها للحظات في نشوة بمذاق السّحر...

تبت من شرودي الّذي رحل بي في رحلة لذيذة حيث كان من المفروض أن أكون الآن صحبة "حلومتي" في التّوّ واللّحظة ذائبين في النّشوة ذوبان السّكّر في الشّاي، مضمّخين باللّذّة تضميخ طير بماء المطر، ولكنّ السّؤال ذاته طفا إلى ذهني مرّة أخرى. ماذا لو فُتح الباب وبرزت "حليمة"؟ هذه المرّة ـ وبعد أوبتي من شرودي الحالم اللّذيذ الّذي أذكى في نفسي نزواتها الغافية ـ برق الجواب في ذهني لمّاعا سطّاعا سطوع الشّمس في زوال يوم صيفي. لا أحسبني إلاّ سأهرول إلى داخل بيتي لأجثو على ركبتيّ متضرّعا إلى ذلك المعتوه أن يبرح

المكان على وجه السّرعة، وإن لزم الأمر فسأغريه بوليمة دسمة في الغد على أن يغرب عن وجهي. وإن تعنّت فأظنّني سأشدّه من تلابيبه وأسحبه خارجا لأرميه كقطّ حقير. نفخت نفخة تنمّ عن حسرة شديدة، وقذفت بعقب السّيجارة بعيدا، وضغطت على أصابع يديّ كلتيهما بعصبيّة ، ودخلت البيت وأغلقت الباب خلفي وقصدت غرفة الجلوس برجلين بالكاد تسعفاني على السّير. حدّقت في "البوهالي" ـ الّذي ظلّ جامدا في مكانه كما تركته ـ بنظرة شزراء، وتهالكت على الأريكة ـ أين كنت جالسا قبل خروجي ـ خائر القوى فاتر العزم. خيّم الصّمت على الغرفة سوى من أنفاسي المضطربة الّتي كانت تخرج بغير انتظام واشية بنفسيتي المهدودة.

ـ لاحظ أنّك لم تصلّ العشاء، بل وحتّى المغرب أيضا.

ـ لاحظ أنّك فضولي تحشر أنفك فيما لا يعنيك.

قلتها ورجلاي تهتزّان في عصبية.

ـ أستغرب كيف لأستاذ يمتهن مهنة نبيلة، مهنة الأنبياء والرّسل، كان حريّا به أن يكون قدوة حسنة لتلاميذه، بل ولجميع من حوله، أستغرب كلّ الاستغراب كيف يمكنه أن يكون نذلا بهذا الشّكل!

انتفضت من مكاني واقفا وكأنّ عقربا لسعني. غلى الدّم في عروقي، واتّقدت عيناي شررا.

لوّحت بسبّابتي نحوه وأنا أقول محذّرا بصوت تجاوز أسوار البيت بأمتار:

ـ هيه! الزم حدودك أيّها الدّجال العفن. لقد تجاوزت كلّ الخطوط الحمراء، ولولا أنّك في بيتي لكان لي معك تصرّف آخر. أفهمت؟

تساءل ببرود مستفزّ متجاهلا تحذيري ومغيّرا الموضوع تماما:

ـ هل ما تزال على شقاق مـع والدك؟

قلت بلهجة غاضبة:

ـ اترك والدي وشأنه أيّها الوقح ولا تلوّثه بلسانك النّتن.

قهقه بسخرية وانتشاء وكأنّه يستلذّ بإغاظتي، ثم قال بعد أن فرغ من الضّحك:

ـ من يسمع كلامك يخالك أبرّ بأبيك من الفضل بن يحيى بأبيه. أم تُراك لم تسمع به؟! لقد بلغ من برّه بأبيه أنّ يحيي كان لا يتوضّأ إلاّ بالماء الحارّ، وكانا في السّجن معا، فمنعهما السّجّان من إدخال الحطب في ليلة باردة، فقام الفضل حين أخذ يحيي مضجعه إلى قمقم -إناء صغير من نحاس- كان بالسّجن، فملأه بالماء، وأدناه من المصباح، فلم يزل قائما وهو في يده حتّى أصبح. وحُكي أن السّجّان فطن لحيلة الفضل في تسخين الماء لأبيه، فمنعهما من المصباح في اللّيلة القابلة، فأخذ الفضل الإناء مملوءً معه إلى فراشه، وألصقه بأحشائه، حتّى أصبح وقد فتر الماء.

قلت وقد بلغ منّي الغضب مبلغا عظيما:

ـ من أنت حتّى تُقحم نفسك في خصوصياتي بهذا الشّكل المشين أيّها الدّجّال الحقير؟!

ـ اعتبرني ضميرك.

ضربت كفّيّ بعضهما ببعض. أشحت بوجهي بعيدا عنه وأنا أبتسم في استياء و أقول:

ـ لا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم. لا ينقصني إلاّ ضمير متعفّن نتن! اِسمع أيّها المشعوذ الخبيث، لقد نفد صبري وثارت ثائرتي، فإمّا أن ترحل عن بيتي في سلام وإلاّ سأشدّك من لحيتك العفنة تلك لأكنس بك أرضية المنزل قبل أن تجد أنفك معفّرة في التّراب في الخارج.

ضرب بكفّه على صدره وهو يقول في ما يشبه التّهكّم:

ـ أفزعتني!...

أضاف:

ـ أراك لا تتورّع مرّة تلو المرّة عن نعتي تارة بالمنجّم، وتارة بالدّجال، قبل أن تتفتّق عبقريتك أخيرًا عن وصفي بنعت جديد: المشعوذ!

قلت وأنا أكتم ابتسامة لذيذة:

ـ نعم، لست سوى كاهن محتال يلعب لعبة خبيثة وقحة.

استوى في جلسته وعقد يديه فوق صدره وقال بنبرة جادّة:

ـ هلاّ تكرّمت أيّها السّيد الفاضل وشرحت الأسباب الّتي بنيت على أساسها ادّعاءاتك تلك؟

ـ الأسباب واضحة وضوح القمر في اللّيلة العفراء. منذ تهجّمك السّافر على بيتي وأنت لم تأل جهدا في إبراز قدراتك الخارقة في التّنبّؤ بالغيب. فماذا يجدر بي أن أسمّيك إذا؟! طبيب نفسي مثلا؟! أو مدرّب تنمية ذاتية؟! هيه... أو ربّما رسول انشقّت عنك الأرض على حين غفلة من السّماء؟!

قال بنفس النّبرة الجادّة وقد تخشّعت ملامحه:

ـ الله جلّ جلاله يقول: {عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا، إلاّ من ارتضى من رسول فإنّه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا} صدق الله العظيم.

سدّدت إليه نظرات قاسية وزمجرت:

ـ أجُننت أيّها السّفيه؟ أتدّعي النبوّة؟! تبّا لك أيّها الكذّاب الأشر، يا مسيلمة هذا العصر.

قال ببرودة أعصاب وكأنّما سيل شتائمي ضلّ طريقه إلى أذنيه:

ـ أهذا ما أحالك عليه فهمك الضّيّق للآيتين؟! حسنا. فليكن، واعتبرني رسولك الخاصّ. لا ضير إذا كان ذلك لليلة واحدة فقط. هل لي بكأس ماء؟

استدرت واتّجهت صوب المطبخ وأحضرت كأس ماء على عجل، وأنا أقرأ الفاتحة ترحّما على ليلة لذيذة ضاعت، وأستجدي قواي المكنونة استعداداً

لليلة غريبة لا أعرف كيف ستنتهي. ناولته الكأس فسمّى الله وشرب مثنى وثلاث ثمّ وضع الكأس على المنضدة وهو يحمد اللهّ.

دعاني للجلوس ففعلت وانطلق يقول بلغة خطيب سلاّق:

ـ إنّ من أظلم الظّلم أن نصدر أحكاما مسبقة على الآخرين دون تروّي أو تؤدة، هذه الأحكام تكون مبنيّة بالأساس على مرتكزات كثيرة ومعقّدة ومتداخلة بعضها ببعض إلى أبعد الحدود، فإنّ حكمك على شخص وأنت في لحظة فرح وحبور قد، بل سيناقض تماما حكمك عليه وأنت في لحظة حنق ويأس، فحالتك النّفسيّة إذا لها دور حاسم، زد على ذلك ثقافتك ووعيك وهواك، فكثير من النّاس يحكمون على الآخرين تبعا لأهوائهم ومآربهم، دون أن نغفل طبعا هيئة ومظهر هذا الشّخص الّذي ما إن تلمحه عيناك حتّى ترسل إلى دماغك ـ في لمح البصر ـ إشارات إيجابية أو سلبية عنه، وهذا ما قد نسمّيه التّمثّل. مسألة أخرى من الأهمّيّة بمكان ألا وهي الكلام، فكم من شخص صموت أُصدِرت عليه أحكام اتّضح بعد تكلّمه أنّها جائرة كلّ الجور.

أنصتت إليه بانبهار شديد، وقد هالني بذهنه الحصيف وبكلامه الحكيم، فأيقنت أنّه نجح بحنكة كبيرة فيما كان يرمي إليه. لقد استعرت بداخلي نيران الفضول، وأشعرني بغير قليل من الذّنب بسبب حكمي المتسرّع عليه، وجعلني أهفو بكلّ جوارحي لأميط اللّثام عن غموضه. حدّقت فيه بعينين منبهرتين وأنا أحاول أن أخنق بقيّة كبرياء بداخلي يؤزّني أزّا كي أتحجّر على موقفي

المبدئي منه. إلاّ أنّني أدركت أنّ الأوان كان قد فات، فما ملكت إلاّ أن رسمت على وجهي ابتسامة مشرقة متودّدة وكأنّني أمدّ إليه يدي معلنا نهاية الحرب ومؤذنا بحلول السّلام. بادلني ابتسامتي بأخرى لا تقلّ صفاءً وتودّدا.

قال وهو يربّت على كتفي في حنوّ:

- أعلم أنّ الفضول بلغ منك مبلغا عظيما، وأنّك استنفذت كلّ ما في جعبتك من مخزون الصّبر، كما أعلم أنّ شوقك لاستجلاء خباياي في هذه اللّحظة أعظم بكثير من لهفتك لقدوم "حليمة"، ولا ألومك البتّة، فقد كان جديرا بأيّ شخص واجه موقفا غريبا مثل هذا أن يفعل أكثر ممّا فعلت، وأنا هنا لست بصدد تبرير تهجّمي عليك وأرجوك ألاّ تطلب منّي ذلك لأنّني أنا نفسي لا أملك مبرّرات مقنعة. كلّ ما يمكنني أن أعدك به هو أنّني لن أبرح مكاني هذا حتّى أبدّد غيوم الحيرة الّتي عكّرت مزاجك في هذه اللّيلة، وكما تعلم يا أستاذي فليس كلّ المقال يُفْهَمُ في عين المقام. والآن ما عليك إلاّ أن تُعِدّ كأس شاي وما نسدّ به الرّمق قبل أن تتوّج ليلتك بتسلّم مفاتيح الحصن الّذي كان يبدو لك قبل لحيظات منيعا...

أومأت برأسي موافقا، وقمت إلى المطبخ وقد انفرجت أساريري بعدما أدركت في قرارة نفسي أنّ ذرّة من اللّين قد تفتح أبوابا يعجز عن فتحها رطل من الشّدّة.

كنت أتحرّك في المطبخ بخفّة متناهية وأنا أعدّ الشّاي والبيض المقلي في الزّيت، وهو الطّبق الوحيد الّذي سمح لي صبري القليل بإعداده. وضعت الطّعام أمام "البوهالي"، وشرع يأكل بينما شرعت أتفرّس في ملامحه في انتشاء لذيذ وكأنّني لا أصدّق أنّني أقف أخيرا على أعتاب قلعة حصينة كافحت كثيرا قبل أن أجدَني قاب قوسين أو أدنى من ولوجها. أنهى الرّجل طعامه، أفرغ في جوفه كأسي شاي قبل أن تمتدّ يده لمنديل ويمسح يديه. رفع بصره ليتهلّل وجهه بابتسامة حانية ما كنت أبدا لأصدّق أنّها يمكن أن تنبثق من بين ثنايا ملامحه الّتي تشعّ قسوة وجفافا. ولأوّل مرّة أرى الرّجل بنظرة مختلفة. الرّجل الذي لطالما خلته مجرّد هيكل عظميّ مكسوّ بكومة لحم يابسة لا يملك مشاعرَ ولا أحاسيسَ، وحتّى إن ملكها فلم أكن لأتصوّرها سوى مشاعر صمّاء بكماء، هذا الرّجل عينه، بابتسامته الودودة تلك، فنّد كلّ تمثّلاتي عنه ليثبت لي ممّا لا يدع مجالا للشّك أنّه إنسان... نعم إنسان... يحسّ... يشعر... ويبتسم...

قال مبتسما وقد بدا أنّه فطن لما كان يدور في خلدي من استغراب:

ـ الأحاسيس لا تموت يا صديقي، قد تخفت لفترة، يصيبها الفتور، تتجمّد، أو قد تترسّب في ركن قصيّ في أعماقنا، ولكنّها لا تموت، لا تموت أبدا. بل أكاد أجزم يقينا أنّه حتّى بعد موتنا لاشيء فينا يبقى ينبض بالحياة غير الأحاسيس. قد تفهم كلامي جيّدا إن أنت عشت لحظة احتضار إنسان عزيز. المحتضر بعد أن يُلجَمَ صوته وتُشلّ حركته ويشخص بصره لايملك لحظتها

إلاّ مشاعره وأحاسيسه لكي يبعث بها رسائله إلى العالم الّذي هو على مشارف توديعه. وحتّى بعد أن يلفظ أنفاسه الأخيرة، وتفارق روحه جسده، تبقى الأحاسيس وحدها همزة الوصل الّتي تربطه بأحبابه في عالم الأحياء.

ـ حقّا أنت لغز محيّر!

عادت الابتسامة الودودة لتزيّن وجهه المهدود وقال:

هاك حلّ اللغز.

كان اللّيل يلملم آخر خيوطه، مؤذنا برحيل وشيك تاركا المجال لضوء الصّبح للسّطوة عليه إلى حين، حينما كان "البوهالي" قد فرغ من سرد حكايته.

انتصب واقفا بخفّة كالمصعوق. مدّ يده مصافحا وهو يقول مودّعاً:

ـ إلى اللّقاء أستاذ.

قلت وملامحي تغوص في بحر من الذهول:

ـ إلى اللّقاء يا حسن.

4

لم يغمض لي جفن في تلك اللّيلة الغريبة. كنت ممدّدا على ظهري في سريري عاقدا كفّيّ خلف رأسي محملقا في السّقف أكابد السّهاد اللّعين الّذي تصيّدني فريسة سهلة على غير عادتي خصوصا في مثل هذا الوقت بالتّحديد عندما يغبش اللّيل حيث يحلو لي النّوم. أتقلّب يمنة تارة ويسرة تارة، وأنبطح على بطني تارة أخرى، وأنا أكاد أتوسّل ولو نزرا قليلا من نوم بدا لي ساعتها أقصى أمانيّ. لا أكاد أسبل أجفاني حتّى ترتدّ آبية الانصياع لسلطان النّوم بكلّ جبروته الّذي لايرحم. أنير مصباح الغرفة لا لشيء إلاّ لأطفئه من جديد. أركل الغطاء برجليّ بعيدا في ضجر وكأنّني بذلك أطوّح بالأرق الّذي كبّلني بأغلاله. ضحكت من نفسي في استهزاء بعدما عرفت للمرّة الأولى أنّ أسراري أُذيعت في القرية كما تُذاع الأخبار على التّلفاز. للمرّة الأولى منذ سنوات خلت أعيد اكتشاف حقائق لا أدري إن كنت نسيتها فعلا أو كنت أغضّ الطرف عنها متناسيا. للمرّة الأولى منذ سنوات أنفض الغبار عن بديهيات طالها النّسيان في بقعة ما من عقلي. اكتشفت اللّيلة أنّ مشكلات العالم ومعضلاته أكبر بكثير من مجرد انتقال ميؤوس منه أو ترقية تسير بإيقاع سلحفاة عجوز. اكتشفت أنّ العالم أوسع وأرحب من حضن "حليمة". اكتشفت أنّ في هذا العالم أناسا يحملون هموما تكفي لنسف جبل. أناس همومهم أسمى من مجرّد لحظة نشوة عابرة دنيئة في حضن "رشيدة". تافه...نذل...جبان...ماذا عساي أقول عن نفسي في هذه اللّحظة الّتي أدركت فيها أنّ الخواء لو كان رجلا لكان أنا. كذرّة أنا في عالم الرّجال. لا يعيش من يحيى بلا قضيّة...

5

ظهيرة ذلك اليوم قصدت عملي خائر القوى، أحمل جسمي المكدود ولا أدري إن كنت أنا من أحمل رجليّ أم هما من تحملاني! شعرت بثقل يحوم حول عينيّ اللّتين لم تتذوّقا طعم النّوم لليلة كاملة. أحسست بهما متورّمتين مطوّقتين بهالة من السّواد كنجمتين خافتتين تسبحان في صفحة سماء ملبّدة بغيوم الشّتاء الفاحمة. كنت ساهما طوال الطّريق المؤدّية إلى المدرسة، أجرجر رجليّ بوهن على الأرض وأفكاري الرّاسخة رسوخ صخرة لا تزحزحها أمواج البحر المتلاطمة ـ أو هكذا كنت أعتقد ـ كنت أشعر أنّ أفكاري تلك تصارع قوى غريبة من مخلّفات اللّيلة المنصرمة تأبى إلاّ أن تزعزعها بل وتزيحها لتحتلّ مكانها ولترسم لي طريقا ما ظننت يوما أنّني سالكه.

لم أتب من شرودي إلاّ على وقع صخب ولغط شديدين أثارهما زمرة من التّلاميذ، وهم يهرولون في اتّجاهي بوجوه يكسوها الحزن والفزع والذهول، تسبقهم أصواتهم وهم يتسابقون نحوي وكأنّهم في تنافس محموم حول من يحظى بشرف بث خبر مهمّ إليّ:

ـ أستاذ...أستاذ...مات "البوهالي".

شُلّت أطرافي وسرت في عروقي دماء باردة وانفرجت شفتاي وكست ملامحي دهشة بليدة.

سألت بعدم تصديق:

ـ ماذا...ماذا قلتم...كيف حدث ذلك؟!

تجمهر التّلاميذ حولي وحكوا لي في حماسة كيف أنّ سائق الشّاحنة "عبّاس" ومساعده عثرا مع بزوغ أولى خيوط الفجر على جثة "البوهالي" ملقاة في الوادي عندما كانا يخترقانه كعادتهما لجلب الرّمل. تسمّرت في مكاني وقد توقّف عقلي عن التّفكير لوهلة لم تطل. تناهى إلى مسمعي صوت نفير سيّارة يصمّ الآذان جعلني والتّلاميذ نتنحّى جانبا فاسحين الطّريق.

غمغمت بصوت مذبوح:

ـ رحمك اللهّ يا حسن.

شخص إليّ أحد التّلاميذ ببصره وقال وهو يحاول أن يُجهز على ابتسامة تحاول أن تطفو على ملامحه البريئة:

ـ "البوهالي" يا أستاذ.

قلت وأنا أحاول أن أبدو كأنّني أتدارك خطئي:

ـ نعم نعم "البوهالي". اذهبوا أنتم الآن.

انفرط عقدهم في لمح البصر، وتركوني أواصل طريقي وحيدا تستبدّ بي الهواجس وتنهشني الوساوس.

الفصل الثّاني

1

لم يكن حسن يملك من المقوّمات ما يغري الأطفال في المدرسة كي يتّخذوه صديقا حميما، لذلك لم يكن له أصدقاء غير كمال. وعلى النّقيض من ذلك، كان لكمال ثلّة من الأصدقاء يحرصون على الالتفاف حوله حرص النّحل على الالتفاف حول قطعة سكّر. كان كمال يحبّ أصدقاءه جميعا، ولكن بدرجات مختلفة، فقد كانت لكلّ منهم مرتبة خاصّة في قلبه، غير أنّ المرتبة العليا كانت محجوزة لحسن الّذي كان يقبع فيها وحيدا لا ينازعه فيها أحد، رغم أن لا أحد منهما يذكر تاريخا دقيقا لهذه الصّداقة.

كان حسن نحيلا وذا قامة قصيرة ووجه رجولي لا يناسب طفولته الغِرّة. كانت نظراته جافّة، خشنة، خشونة صوته الّذي ما إن يغادر حنجرته حتّى يشدّ إليه الأسماع ويستأثر بالاهتمام، ويصبح على حين غرّة مادّة دسمة للتهكّم والسّخرية. وقد كان كمال يحبّه، فرغم ملامحه القاسية وقسماته الحادّة الّتي نفّرت منه الكثيرين، إلاّ أنّه كان يختزن بين ضلوعه قلبا طيّبا لا يتلكّأ البتّة في إرسال الأوامر لغدده الدّمعية للإفراج عن عبراتها لتنسكب غزيرة على خدّيه كلّما التقطت أذناه كلمة جارحة أو أبصرت عيناه نظرة مستخفّة. وكان خجولا...خجولا جدّا. خجل تكالب مع حساسيته المفرطة، الّتي تجعل المرء

يحتار أيفسّرها على أنّها رهافة مغالى فيها أم أنّها وسواس مرضي، خجله ذلك تكالب مع حساسيته المفرطة تلك ليطرحا به بلا شفقة في غياهب العزلة والانطواء. لم تكن له هوايات كباقي أقرانه رغم أنّه كان ولدا فطنا نجيبا متفوّقا في دراسته، وكأنّه يفجّر في الدّراسة كلّ طاقاته ومواهبه، ويودعها كلّ ملكاته.

نشأ حسن وترعرع في كنف أسرة ترزح تحت وطأة الفاقة والحرمان، وهي الّتي بالكاد يستطيع معيلها الوحيد، وهو أبوه، أن يؤمّن لأفرادها ما يقيم أودهم ويسدّ رمقهم ويغنيهم عن ذلّ السّؤال. لم يكن نسبه الفقير ليكون حجر عثرة تقف حاجزا أمام صداقتهما، رغم أنّ كمال، وعلى النّقيض منه تماما، ولد وفي فمه ملعقة سيكون من الإجحاف القول أنّها من ذهب لأنّها كانت من ألماس. أحبّه حبّا طفوليا بريئا أذكته أخلاقه النّبيلة الّتي كانت تميّزه عن سواه. كان كمال كدجاجة تبيض ذهبا بالنّسبة لأصدقائه الّذين ما إن يرنّ الجرس في آذانهم معلنا عن تحرّرهم المؤقّت من قيود الأقسام الكئيبة، حتّى يجدهم متحلّقين حوله في ساحة المدرسة يحرص كلّ واحد منهم أشدّ الحرص على أن يظفر بنصيبه ممّا ادّخر في محفظته من أطعمة متنوّعة، وحلويّات، وعلب بسكويت، وياغورت، وغيرها ...ولن يكون من المغالاة أبدا القول أنّه كان يشعر في تلك اللّحظة بغير قليل من التّعالي والنّشوة الخبيثة، وهو يتهادى كطاوس يفرد صدره وينفش ريشه في خيلاء، ويشمخ بأنفه والأيادي ممدودة إليه وهو يعطي في تباه ويمنع في إذلال ويزعق في غطرسة. وحده حسن كان

يحرمه من ذلك الشّعور اللّذيذ، ففي تلك اللّحظة كان ينزوي بعيدا يراقب المشهد في اشمئزاز وكأنّه ينأى بأنفته حتّى لا تتمرّغ في وحل الذّل وتراب المهانة. ولذلك كان يحبّه حبّا مختلفا. كان يحبّ أصدقاءه ويحتقرهم في الآن ذاته لأنّهم يمنحونه السّعادة وهم يسمحون له بإذلالهم وإهانتهم، وكان يحبّ حسن ويحترمه لأنّه الوحيد الّذي أحبّه بدون أطماع ..

2

كانوا أطفالا، ولكنّ أحلامهم كانت كبيرة لا تتّسع لها قلوبهم الصّغيرة. فكمال .كان يحلم الحلم التّقليدي الّذي يحلمه جلّ الأطفال، دون أن يحقّقونه في الغالب، وهو أن يصير طبيبا مشهورا ذائع الصّيت... ومصطفى كان يحلم أن يصير ممثّلا عالميا جذّابا تملأ صوره المجلاّت والشّاشات... أمّا عمر فلم يخطر على بال أيّ منهم كيف سوّلت له نفسه أن يحلم بأن يصير رائد فضاء... بينما ابراهيم، العفريت كما كانوا يلقّبونه، فكان حلمه أن يصير ثريّا يملك أموالا طائلة لا حصر لها، وسيّارة فارهة، ويتزوّج أربع نساء حسناوات ويقضي أيّامه ولياليه يتردّد على قصوره الأربعة الفخمة. في حين كان يحلم خالد أن يصبح لاعبا مشهورا مثل ميسي أو رونالدو... أمّا حسن، فقد قصّ أجنحة أحلامه مبكّرا حتّى لا ترفرف بعيدا في الأعالي، وتخرج عن مجال جاذبيته فتتيه في المجهول. كانت أحلامه متّزنة اتّزان عقله، بسيطة بساطة حياته.

سأله كمال ذات يوم بعد أن جاءه يشكو إليه بثّه وهو مكفهرّ الوجه يكفكف دموعه:

ـ ما بك؟

أجاب بصوت متهدّج وهو ينشج بحرقة لاذعة:

ـ أبي...لم يعمل منذ شهور...وأمّي...أمّي اضطرّت للخروج للعمل.

همّ كمال بالكلام، لكنّ حسن أردف في تحدّ بعد أن توقّف فجأة عن النّشيج وفي عينيه نظرة إصرار عجيبة:

ـ أتعلم يا كمال...كلّ ما أتمنّاه أن أنهي دراستي وأكبر سريعا... سريعا جدّا حتّى أحظى بوظيفة وأستطيع مساعدة والديّ.

كانت تلك كلّ أحلامه... وظيفة ...

مرّت الأيام والشّهور والسّنون في فرح، وكمال لا يكاد ينقصه من مباهج الدّنيا شيء... مرّت سريعا عليه... بطيئة على صديقه الّذي كان متشوّقا لوظيفة.

وتخطّوا مرحلة الإبتدائي... والإعدادي ... والثّانوي... ثمّ دخلوا الجامعة بعدما كبروا وكبر كلّ شيء فيهم، وحده محرار أحلامهم كان لا يتردّد في تسجيل مستويات منخفضة كلّما مرّت الشّهور والسّنوات. صاروا عمالقة في أجسادهم، أقزاما في أحلامهم. لم يكونوا يظنّون أنّ الإنسان كلّما نضج عقله تضاءلت أحلامه. وحده حسن شذّ عن القاعدة مرّة أخرى مادام قد وضع نصب عينيه منذ البداية حلما بسيطا...بسيطا نظريا على الأقل.

التحق كمال بكلّية الحقوق وهو موقن تمام اليقين أنّه حاد تماما عن حلم صباه في أن يصبح طبيبا مشهورا. حاد عنه لأسباب كثيرة ربّما أعظمها أنّه أدرك بعدما شبّ عقله أنّه لا يصلح أن يصبح طبيبا وهو الّذي يهرول بعيدا صبيحة يوم عيد الأضحى عندما يكون جميع أفراد أسرته متجمهرين رجالا ونساء،

كبارا وصغارا، وهم يحملقون في الجزّار وهو يهمّ بذبح خروف العيد بلا شفقة. لا يصلح لمهنة كتلك وهو الّذي دفن وجهه بين كفّيه ذات يوم عندما لمح رجلا منبطحا على الأرض وهو مضرّج في دمائه بعدما دهسته سيّارة. تنازل عن حلمه بعدما لم يجد مؤازرة من والده الّذي مافتئ يلحّ عليه المرّة تلو الأخرى من أجل الانقطاع عن الدّراسة والانكباب على مساعدته في إدارة مشاريعه الكثيرة، فالحاجّ علي المنصوري الّذي أصبح نائبا برلمانيا وواحدا من أغنى رجالات المدينة، رغم أنّ قدمه لم تطأ مدرسة من قبل، كان يرى أن لا حاجة للأثرياء بالدّراسة، لذلك لم يكلّف نفسه عناء تدريس ابنه في مدرسة خاصّة أو معهد عالٍ. تنازل كمال عن حلمه ولكنّه لم يتنازل عن صديقه الّذي نجح في إقناعه، بعد جهد جهيد، بالالتحاق بكلّية الحقوق هو الآخر حتّى يواصلا مشوار صداقتهما ودراستهما معا.

كان معهم في نفس الكلّية ابراهيم، بينما اختار مصطفى كلّية الآداب، أمّا خالد فلم تسمح الظروف لقطار دراسته بمواصلة رحلته بعد أن حاد عن السّكّة لأسباب عدّة ولمّا يصل بعد محطّة الثّانية إعدادي. وهو المصير نفسه الّذي لاقاه عمر الّذي اضطرّته مصاعب الحياة للسّفر إلى مدينة أخرى بغرض العمل.

3

ازدادت صداقة كمال وحسن متانة مثلما ازدادت غرابة في أعين الطّلاّب الّذين كانوا ينظرون إليها على أنّها صداقة غير متكافئة بين شابّ مترف أغدقت عليه الدّنيا من رغدها ورفاهيّتها، وآخر معدم لا يملك منها لا سبد ولا لبد. الطّلاّب الشّباب في الكلّية لا يختلفون كثيرا عن التّلاميذ الصّغار في المدرسة. فلم تكن عينا كمال لتخطئ نطراتهم الحقودة وهم يشاهدونه صحبة حسن. ولم تكن تخفى عليه ألاعيبهم وحيلهم الخبيثة الّتي تهدف إلى الوقيعة بينهما. ولم يكن لينصاع لرغباتهم الدّؤوبة، الّتي لا يتسلّل إليها الملل ولا الفتور، لاستدرار مودّته، وهو الموقن أنّ غاياتهم من ذلك ليست نبيلة بالمرّة. كان مرارا يضع زملاءه في الغربال ويلحظ دوما أنهم يتسرّبون صاغرين من بين ثقوبه من أوّل رجّة، ولا ينجو غير حسن. لذلك كان يعتبره صديقه الوحيد ويعتبرهم زملاءه الكثر...ليس ذلك من باب المبالغة أو بسبب حبّه الجارف لحسن، ولكن بناءً على أحداث وتجارب على غرار ما حدث صبيحة ذلك اليوم عندما كان جالسا في مقصف الكلّية في هدوء يحتسي فنجان قهوة، فإذا به يبصره يقترب منه بخطى متثاقلة ووجه ممتقع. ألقى بنفسه على كرسيّ أمامه، وضع مرفقه الأيمن على الطاولة وأسند ذقنه إلى كفّه، بينما طفقت كفّه اليسرى تضرب فخده في تشنّج ظاهر وهو مستسلم لشرود ثقيل.

صاح كمال متسائلا:

ـ حسن ما الأمر؟

تطلّع إليه بعينين متعبتين كأنّهما عادتا من سفر طويل وقال بصوت مجروح:

ـ لا تهتمّ صديقي...لا تهتمّ.

قال كمال بنبرة لا تخلو من عتاب:

ـ كيف لا أهتمّ؟! من حقّي عليك كصديق أن تخبرني بكلّ ما يعتمل في صدرك. أم أنّي لم أعد الصّندوق الأسود لأسرارك؟

قال بصوت خفيض حزين:

ـ ليست هناك أسرار يا كمال. أنت تعلم أنّني بين يديك كتاب مفتوح تقلّب صفحاته كيفما تشاء لأنّك صديقي الوحيد.

قال يشجّعه على الكلام:

ـ تكلّم إذا. ما الّذي استجدّ وجعلك تبدو حزينا هكذا وكأن الدّنيا ألقت بكلّ غمومها وكروبها على كتفيك؟!

ابتسم ابتسامة تائهة، أردفها بتنهيدة عميقة، وقال وهو يشبّك أصابعه فوق الطّاولة:

ـ بقصد أو بغير قصد وضعت أصبعك على مكمن الدّاء. المعضلة العظمى ربّما أنّ حياتي لم يجدّ فيها جديد. عجلاتها تدور في رتابة مقيتة. أبي المريض منذ سنوات لا يزال على حاله يشغل الرّكن ذاته، يعتصره الألم ذاته، ويتجرّع المرارة ذاتها.

استطرد وقد احتقنت عيناه حتّى كادت العبرات تنسكب على وجنتيه:

ـ يبدو أنّ المرض اللّعين طاب له المقام في بيتنا البائس، ولم يعد يكتفي بجسد أبي الضّامر ليحطّ الرّحال، بكلّ بأسه، على جسد أمّي المسكينة الّتي لم تعد قادرة على العمل.

ندّت عنه ضحكة ساخرة وأردف يقول وعيناه تبحلقان في الفراغ:

ـ الحشف وسوء الكيل يا صديقي.

شعر كمال بالعجز يتملّكه قبل أن تبرق في رأسه فكرة ظنّها المنفذ الوحيد الّذي سيمكّن صديقه من تصريف حيرته بعيدا ولو مؤقّتا. أخرج دفتر الشّيكات الخاص به.

سحب شيكا ووضعه أمامه على الطّاولة برفق وهو يقول:

ـ تفضّل يا صديقي. خذ هذا الشّيك. لا تخجل. ضع المبلغ الّذي تراه كافيا لتدبير أمورك.

غاضت الدّماء في وجه حسن حتّى بدا وكأنّه وجه جثّة، وقال بامتعاض بعدما هبّ واقفا كأنّ إبرة وخزته:

ـ إذا كنت تظنّ أنّني قصدتك أستدرّ شفقتك وأتوسّل عطفك فأنت مخطئ.

أمسكه من رسغه وأقعده قبل أن يغادر وقال مستدركا:

ـ حاشا للهّ. ما هذا الكلام يا صديقي. المبلغ هو قرض ستعيده حين ميسرة. الدّول...

كان يهمّ بأن يوضّح له أنّ الدّول بكلّ عظمتها تلجأ للاقتراض حينما تعترضها الأزمات المالية، إلاّ أنّه لم يمنحنه فرصة بعد أن انتصب واقفا ورحل وهو يقول في حنق:

ـ لا أريد قروضا من أحد.

اعتراه النّدم بعدما شعر أنّه تصرّف ببلاهة خدشت كبرياء صديقه. هذا الكبرياء الّذي يعتبره كنزه الثّمين ورأس ماله الّذي لا يقبل المساومة.

مرّت مدّة وصديقه غاضب منه، تمنعه أنفته المكلومة من النّظر في عينيه، ولكنّ الأيّام لها قدرة عجيبة على مداواة الجروح مهما كانت غائرة. قدرة لا يملكها حتّى أشهر الأطبّاء أو هكذا خُيّل لكمال عندما جاءه صديقه ذات يوم معتذرا.

هذا هو حسن، فكيف لا يحبّه ويعتبره صديقه الوحيد...

4

لم يُسْلِم حسن نفسه للهواجس لتنهش عزائمه، ولم يسمح لليأس أن يلتهم صرائمه، ولم يجلس مكتوف اليدين يستعطف الأقدار لتصلّب شكائمه، بل منع النّوم عن عينيه، وشمّر عن ساعديه، وامتطى نعليه، وطاف في أزقّة المدينة ودروبها يفتّش عن عمل يغنيه عن مهانة السّؤال وأبويه.

وبعد أيّام... وذات مساء، وبينما كان كمال يحكم القبضة بيمناه على مقود سيّارته متوكّئا بمرفق يسراه على بابها باطمئنان، يقودها، وعيناه تمسحان أجساد النّساء، يمتّع ناظريه بعجيزاتهنّ السّمينة وأردافهنّ المكتنزة، وهنّ يتمايلن في مشياتهنّ ذات اليمين وذات الشّمال في سراويلهن وجلابيبهن الضّيقة كالبطاريق، إذا به يلمح صديقه حسن يدفع عربة يدويّة باعتداد وعلى ظهرها أكوام من الخضر والفواكه. في هذه اللّحظة انتابته مشاعر متضاربة، فما كان يدري هل يفرح أم يحزن. كلّ حلم حسن وظيفة... وكلّ حلم كمال في هذه اللّحظة أن يصالح القدر صديقه...

ابتعدت السّيّارة...ولكنّ أفكار كمال كانت لا تزال منهمكة في تحليل صورة ذلك الشّاب العشريني الجامعي الّذي يدفع عربة الخضر والفواكه في اعتداد. يعنّ له أنّه لم يكن حزينا. فلم يحزن من أجله؟ هو فخور به...

ولكنّه صديقه الوحيد، وكان لابدّ أن يتأكّد أنّه ليس حزينا كما عنّ له.

والتقيا في اليوم الموالي في الكلّية. قاسه كمال بنظراته وكأنّه يبحث في بقعة ما من أديم وجهه عن حزن دفين، وترك نظراته تتسلّل من بين جفونه لتبحر عميقا في عينيه في رحلة بحث مضنية عن آثار تعاسة ما. ولكنّه كان يصدّه في عناد بنظراته الواثقة.

فاجأه بالقول وهو يترقّب ردّة فعله في لهفة:

ـ لمحتك بالأمس وأنت تدفع عربة الخضر والفواكه.

هزّ رأسه علامة الإيجاب وغمغم ببرود:

ـ آه...نعم.

جوابه المقتضب كان دليلا على عدم رغبته في الاسترسال في الموضوع. لقد فشل كمال ـ لا محالة ـ في أن يعرف شعور صديقه بعد عمله الجديد، لذلك اكتفى بأن يكون فخورا به...إنّه لم يعد صديقا عزيزا فقط...إنّه أصبح ملهما له...

5

لم يكن كمال متفوّقا في دراسته رغم أنّ طريق التّفوّق كان مفروشا أمامه بالورود، ممهّدا تحت قدميه ليسير فيه بخطى واثقة. كانت أبواب النّجاح الباهر مشرّعة أمامه على مصارعها، إلاّ أنّه اختار ولوج أبواب أخرى أفضت به عبر دهاليزها المحفوفة بالشّهوات إلى قصور تطفح باللّذّة وتفيض بالمتعة. كانت له، وكمعظم أبناء الطّبقة الرّاقية في المدينة، حياتان: حياة نهاريّة يقضيها بين الكلّية والمقاهي والمطاعم الفاخرة والجولات رفقة الأصدقاء على متن سيّارته الفارهة. وحياة ليليّة لا يتورّع عن قضائها في سهرات ماجنة حيث يطلق اللّجام لنزواته لتتفجّر ينابيعا من اللّذّة والمتعة وهو يعاقر أنواع الخمور الباهظ ثمنها، أو يطوف على أجساد المراهقات الملداء لحومها، يقبّل الشّفاه المحمومة، ويدغدغ النّهود النّافرة، ويتلمّس الأرداف المكتنزة، ويكتشف الفروج ويفتضّ البكارات. كان يتنقّل بين أجسادهنّ تنقّل النّحلة بين الزّهور، ويفاضل بينهنّ مفاضلته بين قمصانه، ويستغني عنهنّ، متى ملّ منهن، استغناءه عن حذاء بال أو ثوب زريّ. وكان ينفق عليهنّ بسخاء ويجزل لهنّ العطاء. كانت حياته تسير وفق إيقاع يناقض تماما إيقاع حياة صديقه حسن الّذي كان يقضي حياته النّهارية واللّيلية كلتيهما في الدّراسة والعمل والاعتناء بوالديه المريضين. وكان لا يبرح الشّارع قافلا إلى البيت إلاّ بعد انفراط عقد المصلّين بعد أن يغلق مسجد الحيّ أبوابه عقب صلاة العشاء. ففي هذا الوقت بالذّات، كان يحرص أشدّ الحرص على أن يظفر ـ في ظلّ المنافسة الشّديدة من باعة آخرين ـ بمكان قرب باب المسجد ليعترض بعربته

المصلّين ـ في شبه استجداء ـ وهو يصيح بصوته الجهوريّ المدّاح لبضاعته والمغري بثمنها الزّهيد. كان راضيا بعمله تمام الرّضى، فخورا به كلّ الفخر. فرغم أنّه كان يشقى كثيرا، إلاّ أنّ دخله تضاعف بعد ثورة الياسمين في تونس وثورة يناير في مصر، حيث خفّت بشكل ملحوظ مضايقات رجال الأمن تجاه الباعة المتجوّلين الّذين أضحوا يحتلّون الأملاك العموميّة. بل، وحتّى الخصوصيّة بصفاقة في تحدّ سافر لكلّ القوانين. أصبحت مهنة بائع متجوّل مهنة من لا مهنة له، فلا يكاد يخلو بيت في المدينة من بائع متجوّل، ولا تكاد تجد شارعا ـ في نهار أو ليل ـ خاليا منهم. وسائلهم متعدّدة، فمنهم من يدفع عربة، ومنهم من يقود درّاجة ناريّة ثلاثية العجلات، ومنهم من يمتطي نعليه يجوب الشّوارع يحمل بضاعته بين يديه، ومنهم من فضّل فرش بضاعته على الرّصيف. بضائعهم مختلفة تتنوّع بين الخضر والسّمك والملابس والعطور والأدوية التقليدية، بل وحتّى المصاحف وكتب السّيرة النّبوية والأقراص المدمجة للقرآن الكريم وغيرها. أثمانهم زهيدة تستقطب الزّبناء وتستفزّ أصحاب المحلاّت التّجارية الّذين يئسوا من تقديم شكايات يتمّ غضّ الطّرف عنها من طرف المسؤولين خصوصا في هذه الفترة العصيبة الّتي يبقبق فيها العالم العربيّ فوق صفيح ساخن. كان واضحا للعيان أنّ أوامرا عليا صدرت بإرخاء الحبل قدر الإمكان، ومنح هامش من الحرّية أكبر في انتظار ما ستسفر عنه الأحداث المتلاحقة الّتي كانت تتعاقب بشكل يرهب المسؤولين من "المقدّم" إلى أعلى هرم في السّلطة. كما كان واضحا بجلاء أن لا أحد من هؤلاء

المسؤولين كان يريد أن يكون شرارة قد توقد نارا قد تأتي على الأخضر واليابس. وفي المقابل كان الشّباب المتذمّر والسّاخط على الأوضاع الاجتماعية والسّياسية والاقتصادية المزرية في البلد، كان هؤلاء الشّباب في أوج حماسهم في أتون هذه الحرب الباردة بينهم وبين السّلطة. وكان كلّ واحد من هؤلاء الشّباب ـ الملهم بما حدث ويحدث في الجوار ـ مشروع "أيقونة" للثّورة على غرار محمد البوعزيزي في تونس وخالد سعيد في مصر.

صحيح لم تكن لحسن ميولات سياسية تستهويه، ولم تستطع أيّ طائفة استمالته في الكلّية، إلاّ أنّه بدأ يلمس التّغيير يطال حياته منذ الفصول الأولى للرّبيع العربي. لذلك أصبح حريصا، كما لم يحرص من قبل، على متابعة الأخبار وهو يشعر أنّ بذرة الأمل في قلبه بدأت تبسق شيئا فشيئا، وأصبح ينظر للمستقبل بعين مترعة بالتّفاؤل. تفاؤل جعله يحسّ وكأنّه بدأ رويدا رويدا ينسلّ من شظف العيش الّذي كان منغمسا فيه كما ينسلّ السّيف من غمده.

6

كان اليوم يوم جمعة، وكان ميزان النّهار قد شرع يختلّ عندما كان حسن يدفع عربته في إحدى الطّرقات المكتظّة يحاول بكلّ ما أوتي من رويّة أن يتسلّل بين المارّة، كلاعب يراوغ خصومه بمهارة، ليبحث لعربته عن موقع يسهّل له اصطياد زبائنه من المصلّين الّذين يهمّون بمغادرة المسجد، عندما أبصر زمرة من النّاس ينتصبون قبالة الواجهة الزّجاجية لمحلّ كبير لبيع الأجهزة الالكترونية وأعناقهم مشرئبّة كالزّرافات، ورموشهم تكاد تكون قد شلّت عن الرّفرفة مانحة الفرصة لأعينهم لتُصَوَّبَ باهتمام نحو الدّاخل. تملّكته الدّهشة وعصف به الفضول، فما ملك إلاّ أن نحّى عربته جانبا ليحشر جسمه بين الأجسام، ويدسّ عنقه بين الأعناق، ويرمي بنظراته المتطفّلة إلى الدّاخل. كان الجميع يشخص ببصره إلى جهاز تلفاز كان مثبتا على جدار في جوف المحلّ، حيث كانت إحدى القنوات العربية الإخبارية الشّهيرة تبث مباشرة خبر تنحّي الرّئيس مبارك عن حكم مصر. فغر حسن فمه في اندهاش وهو يقرأ الخبر العاجل الّذي كتب بخطّ واضح بالبنط العريض غطّى ثلث الشّاشة السّفلي: "عمر سليمان: مبارك يتنحّى عن الرّئاسة". أحسّ بفرحة عارمة تجتاح نفسه وهو يرى ملايين المصريين يحتشدون في مختلف ميادين مصر والفرحة تعلو وجوههم، وهم يهلّلون بعبارات النّصر ويرفعون الأعلام ويهنّئون بعضهم البعض في سعادة جارفة وكأنّ جميع همومهم وكروبهم قد انزاحت على كواهلهم على حين فجأة. هاله المنظر الرّهيب الّذي رأى بأمّ

عينيه، لا بل خطف لبّه في غفلة منه، فهو لا يذكر أنّه سبق وشاهد مثله إلاّ في مناسك الحجّ.

تناهى إلى مسمعه صوت أجش يفيض حماسا آت من خلفه:

– بن علي هرب ومبارك تنحّى. موعدنا يوم الأحد 20 فبراير، فالرّبيع سيسدل جنوحه على كلّ بقاع العالم العربي ونحن لن نكون استثناء.

أدار حسن وجهه نصف دورة ليلمح وجها شابّا قد تناثرت عليه حفنة من الشّعيرات في غير انتظام فتمتم ببلاهة:

ـ 20 فبراير ...

صاح الشّاب بحماسة أكبر وكأنّه يودّ أن يسمع صوته للجميع:

ـ نعم يوم 20 فبراير سنتظاهرجميعا ضدّ الظّلم والفساد والبطالة، أم أنّ حال البلاد والعباد يعجبك؟

غمغم حسن بنبرة بليدة استفزّت الشّاب:

ـ لا . لا يعجبني...ولكن...

زمجر الشّاب غاضبا وقد انتفخت أوداجه:

ـ ولكن ماذا ؟...أنت وأمثالك من الخانعين من جعلتمونا نعيش على هامش الحياة، نتمرّغ في الذّل ونتجرّع الهوان.

ثمّ غادر وهو يضرب كفّا بكفّ ويحوقل بصوت مسموع.

عاد حسن إلى بيته في تلك اللّيلة وأفكار كثيرة تزدحم في رأسه كأبخرة دخّان، وصورة ذلك الشّاب الّذي تناثرت الشّعيرات على وجهه في غير انتظام لا تزال عالقة في ذهنه، وصدى صوته لا يزال يرنّ في أذنيه كطنين النّحل. كان منهكا جدّا، ولكنّ النّوم هجره وسلطان الكرى فشل فشلا ذريعا في كبح جماح أفكاره الّتي تمرّدت عليه وهي تتدفّق غزيرة كسيل عرم وقد انصبّت كلّها حول أمر واحد: 20 فبراير. لم يكن يعرف عنها الشّيء الكثير، لا لشيء، إلاّ لأنه كان يمقت السّياسة ولا يلقي لها بالا، فقد كان فيها كطفل لم يتخطّ بعد مرحلة الحبو. فهل آن له الأوان أن يقف على قدميه ويقتحم عوالمها بكلّ رعونة؟

حاول أن يقنع نفسه أنّ متّسعا من الوقت لايزال أمامه قبل اتخاذ القرار، لذلك وقبيل الفجر بقليل استسلم للنّوم...

7

في مقصف الكلّية جلس كمال وابراهيم يتجاذبان أطراف الحديث، بينما استسلم حسن إلى كرسيّه شارد الذهن يكسو السّهوم سحنته .

توجّه ابراهيم إلى كمال قائلا وهو يغمز بعينه ويومئ برأسه ناحية الطّالبة الّتي كانت في تلك الأثناء تمرّ أمامهم بخطوات رصينة وكأنّها في استعراض عسكريّ:

- إنّي أرى أنّه لخليق بك أن ترفع الرّاية البيضاء وتعترف بالهزيمة بكلّ روح رياضية.

ردّ كمال بنبرة حادّة:

- ليس في قاموس كمال مصطلح استسلام، وغدا ترى. ألا يقال إنّ غدا لناظره قريب وبالتّأنّي تدرك الفرص؟

قال ابراهيم كما لو أنّه يتهكّم:

- يبدو أنّها عاقدة العزم على أن تفوّت عليك الفرصة إثر الأخرى إلى أن يدبّ فيك دبيب اليأس.

وأردف يقول بنفس النّبرة المتهكّمة:

- بما أنّنا أصدقاء فإنّني أعرض عليك خدماتي. ما رأيك؟ ألا يقال: في الجريرة تشترك العشيرة؟

تجهّم وجه كمال وقد شعر أنّ ابراهيم قد تمادى حتّى وطئت قدماه تخوم كبريائه، وقال كمن يحاول أن يستعيد ثقته بنفسه:

ـ لا أنكر أنّها استعصت عليّ كما لم تستعص عليّ إحداهنّ يوما. ولكنّ تمنّعها لم يزدها إلاّ جمالا في عيني، ولم يزدني إلاّ إصرارا على أن أنالها. لن أستمرئ لبنات حواء طعما حتّى أوقعها في شركي وسترى.

قال ابراهيم وضحكة خبيثة محبوسة بين شفتيه:

ـ بل أنت الّذي سترى.

دسّ يده في جيب بنطاله وأخرج قطعة نقد وضعها فوق الطّاولة وأردف في تحدّ:

ـ أراهنك بدرهم وسترى أنّني سأتيك منها بما عجزت أن تأتيني به كما ادّعيت.

تطلّع إليه كمال مستغربا وهو يقول:

ـ كنت دائما واثقا أنّك عفريت خبيث النّحيزة، ولكن لم أتصوّر يوما أن تصل بك الصّفاقة لدرجة أن تتحدّاني وفي ملعبي وأمام جماهيري.

أخرج من جيبه درهما ووضعه بدوره على الطّاولة وهو يقول بنبرة جادّة:

ـ هو الرّهان إذا وليكن حسن هو الحكم بيننا.

ولّيا وجهيهما معا في الآن ذاته شطر حسن، فإذا به رازح تحت ثقل شرود قاتل حتّى بدا أنّ أذنيه لم تلتقطا كلمة واحدة ممّا دار حوله من حديث. انتشلته

من شروده يد كمال وهي تربّت على كتفه في حنان. بحلق فيه حسن في تيهان وكأنّه يراه لأول مرّة.

قال كمال في تساؤل:

ـ ماذا دهاك يا حسن؟ أراك مشغول البال. هائم على وجهك في بيداء من الأفكار.

ودون أن ينتظر جوابا أردف مازحا:

ـ لابدّ أنّ هناك سرّا خطيرا تخفيه.

مال على ابراهيم وهو يغمز بعينه ويقول:

ـ ما رأيك أيّها العفريت؟ هل من تشخيص لحالته؟

ندّت عن ابراهيم نحنحة خفيفة. تململ معتدلا في جلسته وهو يتقمّص دور دكتور يحاول أن يثبّت نظّارتيه فوق أرنبة أنفه وقال برصانة:

ـ الضّغط طبيعي ولكنّ حالة القلب حرجة، يبدو أنّه تعرّض لنوبة حبّ مفاجئة أثّرت بشكل كبير على الدّماغ الّذي أصبح يهفو بشوق للقاء الحبيبة. على العموم السّكتة الدّماغية مستبعدة لحدّ الآن على الأقل.

ثم استطرد وهو يقلّد بإتقان دكتورا يكتب وصفة طبّيّة:

ـ داوم على استعمال هذه الأدوية، وانأ بنفسك عن كلّ ما يثير المشاعر والأحاسيس. أراك بعد شهر من الآن.

انخرط ابراهيم وكمال في نوبة ضحك هستيريّ، وشرع كلّ منهما يتمايل على الآخر كالسّكرانين وقهقهاتهما تجلجل في المكان.

انبرى حسن متسائلا ببرود وكأنّ مياها باردة تجري في عروقه عوض الدّماء:

ـ ما هي توقّعاتكم ليوم الأحد 20 فبراير؟

ران الصّمت لوهلة بعدما كفّ ابراهيم وكمال عن القهقهة. نظر كلّ منهما للآخر في عدم استيعاب.

أردف حسن موضّحا:

ـ أقصد هل تتوقّعون مظاهرات صاخبة على غرار ما جرى في مصر، أم أنّ المشاركة ستكون باهتة؟

تساءل ابراهيم بنبرة جادّة هذه المرّة:

ـ ومتى كنت كلفا بالسّياسة وقد عهدتك عديم الخبرة فيها لا تميّز الغثّ من السّمين؟!

ـ مجرّد فضول لا أقلّ ولا أكثر.

قال كمال:

ـ لا غضاضة عليك إذا. تعلم جيّدا أنّني مثلك أو ربّما أكثر منك لست مولعا بالسّياسة، ولولا أنّ أبي برلماني ما كنت لأعرف اسم حزب واحد. ولكن

لا ضير أن أدلي برأيي في الموضوع. عن نفسي لا أرى أيّ مسوّغات للتّظاهر، المغرب ليس مصر ولا تونس.

تدخّل ابراهيم مستفهما:

ـ المغرب ليس مصر ولا تونس. ألم يقل مبارك نفس الكلام؟ ألم يقل أنّ مصر ليست تونس وعلى الرّغم من ذلك عمّت المظاهرات جميع ميادين مصر حتّى انتهى به الحال إلى التّنحّي عن السّلطة؟

قال كمال:

ـ حتّى لو خرجت المظاهرات فلا أعتقد أنّها ستعرف زخما كبيرا. ولازلت مصرّا على أنّ المغرب ليس تونس ولا مصر. الثّورات تحتاج إلى وقود للاشتعال، ولعلّ الفقر والتّهميش والظلم واحتكار السّلطة هي أبرز العوامل الّتي أجّجت نيران الثّورة ودفعت المصريين للخروج للشّارع للمطالبة بالتّغيير.

قال حسن وهو يهرش رأسه بأصابع يده وكأنّه على وشك إيجاد حلّ لمشكلة معقّدة أرّقته لردح من الزّمان:

ـ إذا كان الأمر كما تقول، وإنّي لأحسبه كذلك، فإنّ المغرب ليس بمنأى عن الثّورة، بل أكاد أجزم أنّه أرض خصبة لنموّ ثورة عارمة مادامت كلّ العوامل الّتي ذكرتها متوافرة.

قال كمال بنبرة واثقة:

ـ لطالما سمعت أبي يردّد أنّ المؤسّسة الملكية هي الضّامن الأكبر لاستقرار هذا البلد، لذلك لا تخف يا صديقي.

تمتم حسن:

ـ لا تخف أنت. أمّا أنا فليس لديّ شيء أخاف عليه.

نفخ ابراهيم في ضجر وهبّ واقفا وهو يقول:

ـ دعكم من هذا الكلام المملّ.

رفع يده مودّعا وهو يقول وصوته يبتعد:

ـ كمال لا تنس الرّهان. وأنت يا حسن لا تنس الدّواء.

تطلّع حسن إلى كمال في استغراب وهو يسأله:

ـ عن أيّ رهان يتحدّث؟

أجاب كمال والابتسامة تغلّف وجهه:

ـ لا أظنّك تجهل العفريت، فنصف كلامه هزل ونصفه الآخر مزاح.

قام حسن بدوره مودّعا صديقه وأسئلة غزيرة تنقف دماغه نقف الفرخ لبيضة. تساءل مع نفسه في حيرة: "هل ابراهيم على علم بحبّي لرجاء؟! و إذا كان الأمر كذلك فكيف تمكّن العفريت من اصطياد الخبر؟! ألهذا الحدّ تفضحني ملامحي وتشي بما يختلج في قلبي؟! أم ترى تحليله العجيب ذاك لحالتي كان مجرد مزحة تصادفت مع عين الحقيقة لتصيب ثقتي، في مدى قدرتي

الخارقة على كتمان مشاعري، في مقتل؟! صحيح أنّني أغرمت برجاء منذ أوّل يوم رست فيه نظراتي على مرفإ جسدها الممشوق كقضيب الخيزران. وصحيح أنّه منذ تلك اللّحظة هيمنت على فكري كلّ الهيمنة حتّى شغلت كلّ ذرّة مساحة من دماغي، حتّى أضحى طيفها الجميل يداهمني في كلّ أوقاتي، بل أصبح يطاردني حتّى أثناء صلواتي وإنّي لأشكّ شكّا، تميل إبرة ميزانه ناحية اليقين، أنّني وحتّى في هلوساتي أثناء النّوم أتمتم باسمها. كلّ ذلك صحيح، ولكنّني متيقّن أنّه في تلك اللّحظة الّتي كنت جالسا في شرود أمام صديقيّ لم تكن هي من تعبث بأفكاري. كانت السّياسة هي من أزاحت رجاء من دماغي للحظات لتتربّع بسطوة على عرش أفكاري كما تزيح الزّوجة الثّانية الزّوجة الأولى من قلب زوجها لتتربّع هي بكلّ أنانية على العرش. فكيف عرف العفريت أنّني مُغْرَمٌ؟! كيف عرف وأنا أكاد أكتم حبّي حتّى عن نفسي؟! إلاّ إذا كانت للحبّ طاقات عظمى، لم أخبرها بعد، هي من تواطأت مع خبرتي المنعدمة في مجال الحبّ لتقهر كلّ محاولاتي لكتمان مشاعري؟!"

نفخ حسن في يأس وكأنّه يحاول أن ينثر بعيدا كلّ ما شاب تفكيره من أوهام وهواجس، ومشى بخطوات متضعضعة وخياله يدعوه بإلحاح لاسترجاع ذلك اليوم الّذي سُطِّر في قلبه بمداد من هيام، ذلك اليوم الّذي سُجِّل فيه في مدرسة الحبّ وإن بدون إذن من أستاذته الفاتنة رجاء، ذلك اليوم الّذي سقط الحبّ فيه كمقصلة على أحاسيسه اليابسة لتنبت في قلبه من يومها أحاسيس بطعم آخر لم يتذوّقه من قبل. ولم يملك إلاّ أن استسلم لنداء خياله

الّذي رفرف به بأجنحة من تلهّف وحنين إلى مدرّج الكلّية حيث كان منهمكا ذلك اليوم في الاستماع للدّكتور المحاضر في انتباه وتيقّظ عندما دعاه داعي الفضول، على حين غرّة من تركيزه، إلى دعوة بصره للقيام بمسح بسيط لمحيطه القريب. وما إن انحرف بصره جهة اليمين حتّى نفذ في عينيها الفاحمتين النّجلاوين كما ينفذ الماء في المنشفة. أحسّ بقشعريرة غريبة تسري في أوصاله، وبفرحة عجيبة تتغلغل في مسام روحه، وتمنّى لو أنّ عجلة الزّمان تتعطّل لتسنح له الفرصة للشّبع والارتواء من عينيها وهو الغرثان الظّمآن لنظرات حبلى بكلّ معاني الجمال والدّلال كتلك.

كان كلّ ما رأى منها عينيها وقد كانتا كفيلتين بجعله أسيرا لهما. لم يكن واثقا أنّ كيمياءً كتلك الّتي تسرّبت إلى أعماقه قد تسرّبت إلى أعماقها. ولم يكن ليسمح لنفسه بأن يطمع في ذلك. فكيف لقميء مثله أن يجذب حسناء مثلها.

في اليوم الموالي اعتكف في مقصف الكلّية بتعمّد حتّى رآها قادمة فتطلّع إليها بإمعان، كما يتطلّع الرّسّام للوحة فرغ منها لتوّه، فهاله جمالها الفتّان. فقدّها ممشوق متناسق مصنوع بإتقان شديد، وخصرها نحيف يسمح لردفيها بالبروز والترنّح في غنج شهيّ، وعجيزتها مكتنزة قليلا توقظ في النفوس غلمتها المكبوتة منذ الأزل، ونهداها منتصبان كأنّهما طبقان لذيذان يثيران الغرائز المكنونة في أعماق النّفوس، وشعرها أسود أملس مثير ينسكب في تسكّع على كتفيها كليل بهيم، وبشرتها سمراء تشعّ نقاءً كنجمة من نجمات بوليود. لقد

أحبّها منذ النّظرة الأولى، وافتتن بها بعد النّظرة الثّانية، وذاب فيها عشقا بعد ذلك. كان موقنا أنّه حبّ من طرف واحد، حبّ بجناح واحد مهما حاول الطّيران سيظلّ ملتصقا بالأرض، لذلك قرّر أن يكتمه ويدفنه في أعماق أعماقه وهو الخجول الّذي يتلعثم ويتفصّد عرقا لو تخيّل نفسه ـ مجرّد الخيال ـ يقف أمام حبيبته يحاول البوح بمكنون قلبه. كان سرّ حياته الّذي لم يطلع عليه أحدا حتّى صديقه الوحيد كمال. ليس لأنّه لا يأتمنه عليه، ولكن لأنّه يعلم جيّدا نظرته للحبّ. فكمال يرى أنّ الحبّ يولد بين شفتي المرأة ويفنى بين فخديها. لذلك آثر أن يطمر حبّه في مكان سحيق في قاع قلبه حتّى يقي نفسه من تهكّمات صديقه اللاذعة.

8

كان القمر قد تملّص بجسارة من قبضة السّحاب الكثيف، ليهيم على وجهه في أديم السّماء، مطلقا العنان بسخاء لسناه ليربض على ذلك الحيّ الراقي من أحياء المدينة. وكانت فيلا الحاجّ علي المنصوري تتلألأ وسط الفيلات كزمرّدة وسط كومة مجوهرات. تحلّق أفراد الأسرة حول مائدة العشاء في غرفة الجلوس الّتي تأثّثت بأفخر أنواع الأثاث التّقليدي المغربي، ونظراتهم مصوّبة تجاه التّلفاز العملاق المثبت على الجدار يتابعون باهتمام مبالغ فيه نشرة الأخبار. كانت واحدة من المرّات النّادرة الّتي يشاركهم فيها الحاج وجبة العشاء، فهو دائم التّرحال إلى العاصمة لمباشرة مهامّه كنائب برلماني، أمّا في حلّه فغالبا ما تسرقه عشاءات العمل والمجاملات والسّهرات والصّفقات من حضن أسرته الّتي اعتاد أفرادها على هذا الوضع حتّى بدا أنّه هو القاعدة بينما الاستثناء هو تواجده بينهم.

جلست الحاجة زينب بجوار زوجها، بينما جلس كمال قرب أخته الكبرى سعاد، في حين غاب عن المائدة زوجها ادريس الّذي دأب على الغياب كلّما كان الحاجّ في البيت. بين الفينة والفينة تدخل مريم برشاقتها المعهودة تتهادى في مشيتها كحمامة، وهي تضع الأطباق الّتي تفنّنت في تجهيزها على المائدة، لتغيب لحظة قبل أن تعاود الظهور من جديد. فرغم أنّها حديثة الخدمة بهذا البيت الّذي لم تكمل فيه بعد شهرها الثّاني، إلاّ أنّها استطاعت بذكائها وحنكتها ومهارتها استمالة قلوب كلّ من فيه.

وضع الحاج لقمة في فمه، وشرع يلوكها على مهل وهو يقول بنبرة السّياسي المحنّك:

ـ الرّعاع، يدعون إلى التّظاهر يوم الأحد وهم يحلمون بقلب الطّاولة على النّظام. يحسب الأغبياء أنّ الثّورات تستنسخ ويجهلون أنّ لكل بلد خصوصياته.

حانت من كمال التفاتة نحو والده وقال:

ـ كلامك مفاده أنّك تتوقّع مظاهرات حاشدة قد تهزّ أركان النّظام.

ضحك الحاج ملء فيه وقال بعد أن بدأت ضحكته تخفت شيئا فشيئا:

ـ النّظام أركانه متينة ولن تقدر زمرة من الشّباب الطّائش أن تهزّها. لا أنكر أنّ الرؤيا لا تزال ضبابية، والنّظام يراقب الوضع عن كثب بنظرة يشوبها الحذر، ولكن ثقوا أنّ المغرب دائما يشكّل الاستثناء الإيجابي طبعا، والفضل كلّه بعد اللهّ يعود للمؤسّسة الملكية الّتي ما فتئت تسهر على استتباب الأمن والأمان.

قالت الحاجّة بنبرة بريئة مفعمة بالتّوجّس وهي تتطلّع إلى الشّاشة الّتي تبثّ صورا لبعض مظاهر الفوضى الّتي تعمّ بعض الدّول العربية الّتي تتأجّج فيها الثّورات:

ـ حفظ اللهّ ملكنا وبلدنا من كلّ شرّ.

ثم أضافت وهي ترفع يديها في وضع الدّعاء:

ـ اللّهم أدم علينا نعمة الأمن والأمان، وأبعد عنّا كيد الكائدين وشرّ الحاسدين.

تدخّل الحاجّ مطمئنا وقال بنبرة واثقة وكأنّه وحده يمسك بخيوط اللّعبة السّياسية في البلد:

ـ اطمئنّي يا حاجّة، فنحن لهم بالمرصاد. ربّما لا مندوحة لنا عن بعض الإصلاحات الّتي تقوم بها كلّ الدّيموقراطيّات في العالم دونما الحاجة إلى ثورات، غير أنّ الأمر لن يصل أبدا إلى حدّ تهديد السّلم الوطني.

لاحت من كمال التفاتة صوب سعاد وقال مازحا:

ـ تلزمك ثورة عارمة ضدّ شهيّتك كي تتخلّصي من هذا الوزن الزّائد. أنا على يقين أن نصف ثروة البلاد مكدّسة في معدتك.

قالت سعاد متسائلة وكأنّ كلام أخيها تبخّر في الهواء دون أن ينفذ إلى أذنيها:

ـ أنا أجهل لماذا تقوم الثّورات. لماذا يتظاهر النّاس وهم يعيشون في رغد ورفاهية.

قال كمال بنفس النّبرة المازحة:

ـ سعاد، ومنذ سنوات، لا تغادر الثّلاّجة إلاّ لتذهب للسّرير ولا تعلم ما يحدث خارج أسوار البيت. لا تعلم أنّ هناك غرثى يلسعهم الطّوى لا يجدون

ما يتبلّغون به، ومرضى يضنيهم السّقم لا يجدون ما يتطبّبون به، وعراة يلدغهم القرّ والحرّ لا يجدون ما يتدثّرون به.

امتقع وجه الحاجّ والتفت ناحية كمال وقال محتدًا:

ـ ليس هناك بلد في العالم ليس فيه جوعى ومرضى وعراة ومظلومون. هذه سنّة اللهّ في كونه. لابدّ من فقراء وأغنياء.

ثمّ قال وهو يميل على سعاد وهو شبه موقن أنّها لن تفهم قوله:

ـ اعلمي يا ابنتي أنّ من يدعون للتّظاهر والاحتجاج صنفان: فقراء حاقدون على الطّبقة الثّريّة في المجتمع، أو متآمرون من الدّاخل والخارج يتربّصون بأمن هذا البلد لغرض في نفس يعقوب.

ثمّ قال مغيّرا دفّة الحديث:

ـ أين ذلك الوغد المسمّى ادريس؟ لماذا لا يبرح البيت إلاّ في حضوري؟ أم أنّه يأبى أن يكون رجلا كبقيّة الرّجال؟

اكفهرّ وجه سعاد فصاحت محتجّة:

ـ للمرّة الألف تلوك نفس الكلام. ألا تملّ من هذه الأسطوانة؟ وكأنّ البيت ليس فيه سوى ادريس لتنهال عليه بأقسى عبارات القدح والتّقريع.

هتف الحاجّ وقد قطّب حاجبيه:

ـ عن أيّ قدح وتقريع تتحدّثين أيّتها البليدة. على رسلك حتّى أراه وسترين بأمّ عينيك ما سأصنع به. الانتهازي الوقح يخالني مغفّلا أم ماذا؟!

هبّت سعاد واقفة وهي تتأفّف في امتعاض شديد:

ـ أووووووووووف...

وغادرت وهي تضرب الأرض بقدميها ضربا في تضجّر واضح.

التفت الحاجّ ناحية زوجته بنظرات منتكسة وهو يقول فيما يشبه الشّكوى:

ـ هل تروقك تصرّفات ابنتك؟! أرأيت كيف تضرب بكلّ ما كابدناه من أجل تربيتها عرض الحائط!

ثمّ واصل وهو يضرب كفّيه بعضا ببعض ويحرّك رأسه يمنة ويسرة في يأس:

ـ لا حول ولا قوّة إلاّ باللهّ العليّ العظيم. رحم اللهّ الأيّام الخوالي. كان المرء لا يستطيع حتّى النّظر ملء عينيه في وجه والده. ما هذا الجيل الّذي فضّ الشّراكة مع الحياء جملة وتفصيلا.

قالت الحاجّة:

ـ هدّئ من روعك يا حاجّ. لا تنس أنّك مريض بالسّكّري والضّغط والقلق ليس في صالحك. إنّها ابنتك على كلّ حال. وأنت أعلم منّي أنّها طيّبة جدّا حدّ البلاهة. هي فقط تحبّ زوجها وتخشى أن تفقده. لطالما أسرّت لي بذلك. لشدّ ما تتمنّى أن تغيّر من تعاملك معه وتحبّه وتحترمه وتعامله معاملة الصّهر لصهره.

قال الحاجّ بصوت منكسر وهو يزدرد غصّة كانت عالقة في حلقه:

ـ وهل تسمّين هذا النّذل صهرا.

تدخّل كمال بعد أن قرّر كسر جدار الصّمت الّذي شيّده حوله طوال فترة الحديث عن ادريس:

ـ لا عليك يا والدي. أحيانا نضطرّ لتجرّع الذّلّ والهوان كضريبة عن أخطاء اقترفها من نحبّ. تعلم جيّدا أنّ كرهك لادريس لا يضاهي كرهي له، فعلى الأقلّ ـ ولحسن حظّك ـ أنت دائم الغياب عن المدينة، وقد كفيت نفسك بذلك معرفة ما يؤذيك من النّوائب الّتي يجترحها هذا الجبان آناء اللّيل وآناء النّهار وعلى مرأى ومسمع من الجميع.

نهض الحاجّ بتثاقل وسار قاصدا غرفة نومه وصوته يبتعد:

ـ سنضع حدّا لهذه المهزلة. لابدّ من ذلك. لن أسمح لهذا الحقير أن يلطّخ سمعتي ويهدم في رمشة عين كلّ ما بنيته في سنين.

9

في غرفتها، استلقت سعاد على سريرها وقد صالبت يديها خلف رأسها ونظراتها، الّتي تنفلت بصعوبة من عينيها المغرورقتين بالدّموع، تتيه في السّقف تيهان عقلها الّذي لا يدري أيلوم والدها على معاملته الفظّة لزوجها؟ أم يلوم سذاجتها الّتي أوصلتها لهذا الحال؟ أم يلوم قلبها الّذي يأبى تغيير وضع لا يرضاه كلّ من في البيت عداها وأمّها؟ مسحت بكفّها دموعها الّتي شرعت تسيل على خدّها، وسرحت بخيالها الّذي أعادها إلى الوراء في رحلة مترعة باللّذّة والألم. تذكر جيّدا تلك الأيّام كما يذكر الضّرير عهد البصر بأفراحه وأتراحه. كان ذلك قبل حوالي سنتين. خرجت صحبة الخادمة خديجة للتّسوّق على غير العادة. رجت أمّها كثيرا وبلّلت أهدابها بالدّموع، وبعد لأي شديد، جاءتها الموافقة بالخروج رفقة خادمتها وحديهما مستغلتّين غياب الحاجّ وكمال عن البيت. وفي محلّ فخم لبيع الملابس النّسائية رأته للمرّة الأولى .

كانتا تعاينان بعض الألبسة في مرح طفولي كعصفورتين تحرّرتا للتّوّ من القفص، وفجأة شعرتا بعين غريبة تتجسّس عليهما في فضول. كان شابّا أنيقا يرتدي سروال "جينز" أزرق فاتح، وقميص أسود ضيّق يكشف تفاصيل جسمه المفتول وقد فُتحت أزراره على مستوى الصّدر حتّى بدا كنجم من نجوم الرياضات القتالية، له وجه جميل ذو بشرة بيضاء نقيّة مزدان بلحية خفيفة، وشعره الأملس انسدل حتى لامس كتفيه العريضتين. شعرت سعاد بحرج شديد يجتاحها وهي الّتي لم تتعوّد على مطاردات شبابية من قبل.

قالت لخديجة بارتباك وهي تعيد قميصا إلى مكانه:

ـ إنّه يطاردنا بعينيه.

ـ بل سيلتهمنا بعينيه. لا أدري ماذا يفعل في محلّ لبيع الملابس النّسائية؟!

ـ من يدري!

قالتها سعاد وهي تختلس نظرة خاطفة إلى الشّاب الّذي جلس على كرسيّ إلى جانب صاحب المحلّ مبتسما وعيناه لا تزالان مصوّبتين تجاههما.

استطردت قائلة:

ـ فلنغادر الآن.

تساءلت خديجة في خبث:

ـ هل حقّا تودّين المغادرة؟!

ودون أن تردّ، تقدّمت باستحياء صوب باب المحلّ وغادرت.

تسمّرت خديجة في مكانها لوهلة وهي حائرة، لكنّها لم تملك إلاّ أن سارت على خطى سعاد. غير أنّ الشّاب فاجأها بعدما هبّ من كرسيّه ولحق بها في باب المحلّ والابتسامة لا تزال تزيّن وجهه. دسّ في كفّها وريقة وعاد من حيث أتى دون أن يفوه بحرف. عندما عادتا إلى البيت في المساء، كانت سعاد قد راكمت في دواخلها حشدا من الأحاسيس: الحيرة، الارتباك، التّردّد، السّعادة، الحبّ ...ثارت مشاعرها على حين غرّة كما يثور البركان دون سابق إنذار، وهي تمسك بالوريقة بين أصابعها في ظفر وكأنّها طفلة تمسك بلعبتها المفضّلة. لا

تنكر في قرارة نفسها أنّها فقدت الأمل في الزّواج كأترابها من البنات، فهي في مقياس الجمال تحتلّ درجة متدنّية. فمن ذا الّذي يرضى لنفسه بزوجة دميمة فدومة قد تجاوزت الثّلاثين؟! ولكن ... ها هو شابّ وسيم يعاكسها، بل ويلقي لها بحبل الوصال كما لم يفعل غيره من قبل.

وانتظرت... انتظرت أيّاما حتّى هزمت بعضا من حيائها بتواطؤ مع أمّها وخديجة.

ركّبت رقمه على جوّالها وهاتفته بتلعثم:

ـ الو ...

جاءها الصّوت من الجانب الآخر:

ـ الو... من معي؟

ـ أنا ...الفتاة الّتي أعطيتها رقم هاتفك ...

ودون أن تكمل كلامها جاءها صوته مفعما بالسّعادة والحماس:

ـ أهلا. لن تتصوّري كم انتظرت مكالمتك على أحرّ من الجمر حتّى دبّ اليأس في قلبي وظننت أنّك نسيتني.

ـ لا ...فقط ...أقصد...

أحسّ بأنّ رصيدها من الكلمات قد نفد مبكّرا، لذلك كان لزاما عليه أن يتدخّل:

ـ لا عليك. حريّ بفاتنة مثلك أن تتمنّع. وأنا أكاد أطير من فرط السّعادة لأنّك قرّرت أن تتكرّمي عليّ بهذه المكالمة.

ـ أنا أيضا سعيدة.

توالت بعدها المكالمات وعرف عنها كلّ شيء: اسمها سعاد، في الثّانية والثّلاثين من عمرها، أبوها برلماني، وهي عزباء... وعرفت عنه كلّ شيء: اسمه ادريس، في الثامنة والثّلاثين من عمره، مهاجر مغربي يعمل في ايطاليا، وهو أعزب... وبعد بضعة أشهر، وبعد أن كبحت جماح رغباته في عقد أيّ لقاء بينهما قبل أن يغادر المغرب متوجّها إلى إيطاليا، لم يجد بدّا من طلب يدها للزّواج بعدما وقع كلّ منهما في غرام الآخر. نصّبت والدتها من أجل إخبار والدها الّذي وافق على الفور.

وفي تلك اللّيلة القائظة من ليالي الصّيف، كانت أسرة الحاجّ علي تستقبل الخاطب ووالديه برحابة البهو الفاخر الّذي جلسوا فيه يتناولون الشّاي وصنوف الحلويّات في انتظار وجبة العشاء، ويتجاذبون أطراف حديث يقطر مجاملات في مثل هذه المناسبات. بينما كانت سعاد لا تزال واقفة أمام مرآة غرفتها تطالع صورتها في ارتباك. فتارة تشدّ حزام قفطانها وتارة ترخيه. وتارة تمطّ شفتيها المضمّختين بأحمر شفاه غامق وتارة تزمّهما في عصبيّة محاولة التّخفيف من احمرارهما. تهمّ بالانصراف، فما تلبث أن تعود لتطمئنّ على هيئتها في ريبة وتوجّس. جاءتها خديجة تستعجلها فتبعتها تتعثّر في أذيال قفطانها

ويداها تمسكان به من ناحيتي خصرها. دخلت البهو وقطرات من العرق تنزّ على جبينها وعيناها مسمّرتان في الأرض من فرط حيائها.

قالت الحاجّة زينب ووجهها يطفح بهجة:

ـ تقدّمي يا ابنتي وسلّمي على صهريك وخطيبك.

تقدّمت سعاد بخطى متثاقلة. ألقت بيدها لتسلّم على الرّجل والمرأة الجالسين في وقار، لتجد نفسها بعد ذلك وجها لوجه أمام ادريس الّذي رفع بصره باتّئاد وخفر. وما إن لمحها حتّى تغضّنت جبينه وشلّت أطرافه وعقدت الدّهشة لسانه فما استطاع أن ينبس بحرف. مدّت له يدها وانتظرت لحظة ـ خالتها من ثقلها دهرا ـ إلى أن استطاع أن يمدّ إليها يده هو الآخر في برود. عادت لتجلس لصق والدتها بينما لم تكن غرابة الموقف لتخفى على الحضور الّذين خمّنوا أنّه لا مشاحّة في الأمر لبسا ما.

انقشع اللّبس عن الأمر بعد ذلك، وعرف الجميع أنّ ادريس لم يجئ إلاّ لخطبة خديجة، تلك الفتاة الفاتنة الّتي دسّ في كفّها وريقة عليها رقم هاتفه ذات يوم في ذلك المحلّ لبيع الملابس النّسائية. لقد خالها هي السّيّدة وسعاد هي الخادمة. أثّر هذا الموقف على نفسية سعاد أشدّ ما يكون التّأثير، فلم تستسغ أبدا كيف أنّ ادريس لم يقدر على التّمييز بينها وبين خادمتها فأصيبت بنوبة عصبيّة استدعت نقلها إلى الطّبيب النّفسي. تحرّك بعد ذلك نفوذ الحاجّ علي وفُتحت خزائنه على مصارعها إنقاذا لابنته من الإصابة بجنون محتّم وذودا عن هيبته

الّتي شعر أنّها قد تصاب في مقتل لو لم تتمّ هذه الزّيجة كما كان مخطّطا لها. تلقّف ادريس الفرصة الّتي سنحت له على طبق من ذهب بجشع شديد، فلم يتوان في ابتزاز الحاجّ علي خصوصا أنّ نواياه لم تكن أبدا تميل ناحية الزواج منذ البداية. فعندما أعجب بجمال خديجة ارتأى ربط علاقة طارئة معها، ولكن عندما علم أنّ القدر وضع في طريقه كريمة أحد أبرز الرجال النّافذين في المدينة، سال لعابه وحسب نفسه قد غنم غنيمة سمينة: زوجة ذات مال وجمال، لذلك قرّر مصاهرة الحاجّ لعلّه ينتشله من براثن بطالة منمّقة ما فتئ يتخبّط فيها منذ مدّة في ذلك البلد الأوروبي الّذي لم يسلم من تداعيات الأزمة الإقتصادية الّتي صدّعت أركان الاقتصاد العالمي وكان من أبرز نتائجها خسران العديد من العمّال لوظائفهم. كان ادريس واحدا من عدد كبير من العمّال المهاجرين المغاربة الّذين يرزحون تحت وطأة البطالة، والّذين لم تكن تمنعهم سوى الأنفة من العودة صفرا إلى بلدهم الأمّ. لذلك فضّل البقاء حفظا لماء وجهه، وحفاظا على اليوروهات القليلة الّتي كان يتقاضاها من الدّولة هو وأمثاله من المعطّلين كإعانات بطالة. لهذا، وبعدما علم ادريس أنّ الفتاة الّتي استهوته منذ البداية ليست ابنة الحاجّ، بل هي مجرّد خادمة، لم يجزع كثيرا ولم يتقهقر إلى الوراء، بل قرّر مواصلة المغامرة طالما أنّها ستقوده في النّهاية إلى مصاهرة الحاجّ. فأبدى الخبث الكثير والجشع الغزير، فملأ جيوبه من أموال الحاجّ، وأمّن لنفسه مبلغا ضخما من المال ليقرّر بعدها الاستقرار بصفة نهائية في المغرب ويلقي بنفسه زوجا على سرير كريمة الحاجّ علي.

أحبّت سعاد ادريس كثيرا حدّ الوله رغم أنّ هذا الأخير لم يبادلها الشّعور نفسه، بل لم يتورّع المرّة إثر الأخرى عن خدش كبريائها بكلّ صفاقة بخيانتها جهارا، إلاّ أنّها تحصّنت خلف متراس الصّبر وقبلت عبّ كؤوس الذّلّ والمهانة حفاظا على حبّ سلبها لبّها، كيف لا وهي الّتي لا تعرف غير الطّيبوبة ديدنا والفدامة سجيّة.

وبقدر ما كان مقياس حبّ سعاد لادريس ـ رغم علاّت هذا الأخير ـ يسجّل مستويات عالية، بقدر ما كان مقياس كره الحاجّ وكمال له يسجّل مستويات أعلى مع توالي الأيّام حتّى بلغ مستويات قياسية غير مسبوقة. وليس هذا فقط بسبب بطالته الّتي طال أمدها حتّى بدا واضحا للجميع أنّه استمرأ الرّاحة والعيش في جلباب الحاجّ الرّحب الّذي يسع المئات من أمثاله، ولكن أيضا بسبب طيشه ونزقه وزلاّته الّتي جعلت منه طبقا دسما لا يكاد يخلو منه سمر في المدينة. وحدها الحاجّة زينب كانت ولازالت تقف في صفّ ابنتها، ومن ورائهما مريم مشكّلتين جبهة صدّ نسائيّة عتيدة تنجح دائما في وجه الغارات المتتالية الّتي تصدر من المعسكر الرّجالي.

انهمرت دموع سعاد غزيرة وهي تسترجع ـ بنشوة مشوبة بكثير من اللّوعة ـ شريط قصّتها مع ادريس منذ النّظرة الأولى إلى اليوم. طبّقت أجفانها وشرعت في استجداء النّوم...

10

كان اليوم يوم جمعة. هواء المدينة يتضوّع منه الإيمان والسّكينة. خرج حسن في زينته قاصدا المسجد لأداء صلاة الجمعة. فلم يكن ينكث عهده مع داعي الله إلاّ لماما وتحت قهر الاضطرار. وعندما أصبح على بعد خطوات من باب المسجد، لمح بعض الرّجال متحلّقين حول رجل ملتحٍ متوشّح بجلباب قطنيّ أسود وهو يخطب فيهم بحماسة تبدّت من خلال ملامحه الجادّة وحركات يديه اللّتين لا يكفّ عن التّلويح بهما في الهواء وكأنّه أستاذ يشرح لطلاّبه، أو كأنّه مايسترو محترف يقود جوقة موسيقيّة مشهورة. اقترب من الجمهرة أكثر. أمعن النّظر في الخطيب، فإذا بعينيه ـ وقبل أن يرتدّ إليه طرفه ـ ترسلان إشارات إلى ذاكرته الّتي أسرعت بدورها في الإفراج عمّا اختزنته عن هذا الرّجل الّذي بدت ملامحه مألوفة. إنّه خالد... فرغم أنّه أصبح يحمل جسما بدينا لا يصلح لنجم كرة كما كان يحلم أيّام صباه، ورغم أنّ وجهه أصبح بالكاد يظهر تحت لحيته الكثّة السّوداء الفاحمة، ورغم أنّ نظراته الطّفولية البريئة تخلّت عن مكانها لأخرى شزراء، إلاّ أنّه عرفه بسرعة. حشر حسن نفسه وسط الجمهور وأصاخ بسمعه لخالد الّذي انهمك يحرّض النّاس على الخروج للشّارع والاحتجاج على الفقر والظّلم والتّهميش والوضع المزري لحقوق الإنسان والحرّيات. كان يخطب بسلاسة وانطلاق وكأنّه طالب يستظهر درسه عن ظهر قلب.

انسلّ حسن من بين الجمهور وقد تملّكته الدّهشة واجتاحته الحيرة وهو يتساءل مع نفسه: "كيف لشابّ مثل خالد لم يرتو بلبان العلم والمعرفة أن يخطب بهذه السّلاقة؟! وهل هو مقتنع بما يقول أم أنّه مجرّد بوق لجهة ما؟"

ـ إنّه عنصر من الجماعة.

صاح أحد الرّجال وهو يتأهّب لدخول المسجد وكأنّما قرأ تساؤلات حسن.

ـ الجماعة؟

همس الرّجل:

ـ العدل والإحسان.

أومأ برأسه موافقا في بلاهة وهو يدخل المسجد.

جلس حسن ينصت لخطبة الإمام الّذي انطلق يحدّث بكلام بدا جليّا أنّه تمّ حشوه به كي يتهوّعه على المصلّين لعلّه يثنيهم ـ أو بعضهم على الأقلّ ـ عمّا قد أزمعوا عليه من مظاهرات واحتجاجات. أسهب الخطيب وأطنب وحاول بكلّ ما أوتي من حصافة وبلاغة وعلم أن يعرض الدّليل تلو الآخر على وجوب طاعة ولي الأمر في المنشط والمكره، في العسر واليسر. استشهد بقول اللهّ تعالى: ﴿يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللهّ وأطيعوا الرّسول وأولي الأمر منكم﴾ [سورة النساء: الآية 59]. وقول الرسول صلّى اللهّ عليه وسلّم: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن يُطِع الأمير فقد أطاعني، ومن

يَعْص الأمير فقد عصاني، وإنّما الإمام جُنّة يقاتَل مِن ورائه، ويُتَّقى به، فإن أمر بتقوى الله وعدل، فإنّ له بذلك أجرا، وإن قال بغيره، فإنّ عليه منه» متّفق عليه. وبقول عمر بن الخطّاب رضي اللهّ عنه: "لا دين إلاّ بجماعة". وراح يعدّد مزايا لزوم جماعة المسلمين وأضرار الخروج عن وليّ الأمر برّا كان أو فاجرا. لقد تقمّص الخطيب دور سياسيّ فقد قدرته على الإبهار والإفحام، لذلك جاء كلامه مملاّ يبعث على النّوم أكثر منه على التّدبّر والخشوع.

قُضيت الصّلاة وترك حسن المسجد كباقي المصلّين، وعزم على أن ينتشر في الأرض ويبتغي من فضل اللهّ، إلاّ أنّ انتباهه استرعاه تجمهر العشرات من المصلّين الّذين حاولوا استقطاب الآخرين من أجل تنظيم مسيرة احتجاجية تنطلق من باب المسجد وتجوس بعض شوارع المدينة. تجمّد في مكانه يتابع الموقف عن كثب وهو يرى خالد يتقمّص دور زعيم ثوريّ يجيد العزف على الوتر الحسّاس وهو يحاول دغدغة أحاسيس الجمهور باسم الدّين وبكلمات رنّانة وفضفاضة قد لا يفقه هو نفسه معانيها. ولمّا فشل خالد ورفاقه في الحشد لمظاهرتهم اكتفوا بترديد بعض الهتافات المطالبة بمحاربة الفساد والظّلم والتّهميش والبطالة... أمّا حسن فرغم أنّ أمواجا عاتية من الأسئلة كانت تتلاطم في رأسه، إلاّ أنّه ساعتها كان له شأن يغنيه عن كلّ ذلك. فقد كان أفراد أسرته في انتظاره على أحرّ من الجمر ليتناول معهم وجبة الكسكس الّتي أضحى الالتفاف حولها يوم الجمعة بمثابة طقس من الطّقوس الّتي دأبوا عليها حتّى أصبحت عرفا سائدا يصعب التّفريط فيه إلاّ فيما ندر.

11

كانت الشّمس تحتلّ كبد السّماء وهي ترسل أشعّتها الدّافئة الكئيبة على ذلك الحيّ البائس الّذي ينزوي في هامش المدينة كالرّجل المجذوم. في شقّة حقيرة مكتراة، وفي الطّابق السّفلي لعمارة عتيقة، وداخل غرفة الجلوس جلس حسن بجانب والدته على الأرض حول مائدة الغذاء. وغير بعيد عنهما يرقد الأب على فراش المرض وقد افترش سجّادة مصنوعة من جلد خروف العيد. انكبّت عليه ابنته هناء تحاول أن تجلسه وتسند ظهره للحائط حتّى تتمكّن من إطعامه كما دأبت على ذلك منذ أن توغّل المرض إلى جسمه حارما إيّاه من ليونة الحركة، ومجبرا إيّاها على الانفطام عن الرّضاعة من أثداء العلم والمعرفة في المرحلة الثّانوية. كانت هناء الأخت الصّغرى والوحيدة لحسن. وكان يحبّها أشدّ ما يكون الحبّ. لشدّ ما اعتصره الألم وعكّر صفوه النّدم وجلد نفسه بسياط اللّوم والعتاب لأنّه يرى فقره وقد كبّله بأصفاد من فولاذ، وحال بينه وبين توفير خادمة لأبويه تعينهما على قضاء مآربهما، وتمنح الفرصة لأخته لتواصل إبحارها في يمّ العلم الّذي كانت تجيد الإبحار فيه. فالدّراهم الّتي يجنيها من عمله كبائع متجوّل بالكاد تكفيه لدفع مبلغ إيجار الشّقة وتوفير ما اضطروا إليه ليبقوا على قيد الحياة. كانت الغرفة ضيّقة تكاد تختنق لولا كوّة صغيرة في أعلى الجدار أسفل السّقف. وكان أثاثها الزّريّ شاهدا آخر على بؤس هذه الأسرة. فالأرضية كانت مغطّاة بحصير بال، تربض عليه زربيّة عتيقة حمراء تتخلّلها زخرفات زرقاء بدأت ألوانها تبهت حتّى قد يستعصي على المرء تحديدها بسهولة. فوق الزّربية وبمحاذاة الجدران اصطفّت ـ

في عشوائية ـ سجّادات مثل تلك الّتي يرقد عليها الأب وفوقها وسائد لا تتشابه في أشكالها ولا أحجامها ولا ألوانها.

سأل الأب بصوت متهدّج من المرض:

ـ ما بالك اليوم يا حسن وعلى غير عادتك لم تحدّثنا عن خطبة الجمعة؟

طفت على وجه حسن ضحكة خفيفة وهو يقول:

ـ بل خطب الجمعة يا أبي.

واستطرد:

ـ اليوم شهدنا ثلاث خطب جمعة. خطبة قبل الصّلاة، وخطبة أثناءها، وأخرى عقبها، كلّ يغنّي على ليلاه، فريق يشحذ همم النّاس للتّظاهر والاحتجاج، وفريق يثبّط عزائمهم ويدعوهم للجنوح لطاعة وليّ الأمر ويحرّم الخروج عليه تحت أيّ ظرف كان.

قال الأب بدهاء وهو يتلمّظ:

ـ وأنت مع أيّ فريق؟ أم أنّك تقف على التّخوم بينهما وإنّني أرى أنّه لمن الفطنة أن تفعل ذلك.

قال حسن وهو يهزّ رأسه علامة على عدم موافقته لرأي أبيه:

ـ بل إنّه لمن الجبن أن يقف المرء على الحياد وعينه ترقب أن تميل الكفّة لأحد الفريقين حتّى يسارع للانبطاح في حضنه بكلّ سفالة. في هذه المرحلة الدّقيقة بالضّبط الّتي تمرّ منها بلادنا على كلّ فرد منّا أن يحسم قراره.

هتفت هناء:

ـ حماستك لا تشي فقط بأنّك حسمت قرارك، بل وأنّك قد انجرفت خلف فريق بعينه.

أضافت وهي تبتسم وتغمز بعينها:

ـ أليس كذلك يا حسّون؟

ـ لا ليس تماما يا هناء. الانجراف دون إحكام العقل قد يقود إلى التّطرّف. التّطرّف هو مأساة العصر ونحن في حاجة إلى اجتثاثه وليس إلى ترسيخه أكثر.

قالت هناء مازحة وهي تبتسم في وجه أبيها:

ـ ابنك أصبح من فطاحلة السّياسة في البلد.

قال الأب:

ـ بل والفلسفة أيضا.

وانخرط الجميع في لحظة ضحك.

قال بعدها حسن موضّحا كمن يحاول أن يزيل لبسا ما:

ـ لا أبدا. لست سياسيا ولا فيلسوفا. أنا فقط أرى أنّ لكلّ فريق حسناته وسيّئاته، والعاقل هو الّذي يلزم الوسطيّة.

قال الأب مستفسرا:

ـ هلاّ أنرت عقولنا أكثر بمعنى الوسطيّة الّتي تقصد؟

ـ حسنا. لا ينكر أحد ـ حتّى المسؤولون أنفسهم ـ أن مجتمعنا يستشري فيه الفساد والظلم والبطالة والفقر والتّهميش وغيرها، وهي أشياء لا يجب السّكوت عنها. لهذا فأنا أرى أن الحلّ هو الخروج للاحتجاج والتّظاهر السّلميين للمطالبة بالحقوق والمساواة والعيش الكريم وتوفير فرص الشّغل للشّباب، ولكن دون أن نسمح لمن في قلوبهم مرض أن يمتطوا مطالبنا المشروعة من أجل تحقيق مآربهم الّتي لا تمتّ لمطالبنا بصلة، والّتي قد تقود البلاد لمنزلق خطير لا تحمد عقباه.

قالت الأم بسذاجة:

ـ إنّي أخشى يا بنيّ أن تنساق وراءهم فيصيبك مكروه.

قال حسن وهو يربّت على كتف أمّه في ودّ:

ـ لا تخافي عليّ يا أمّاه. بإذن اللهّ ستتغيّر ظروف البلد للأفضل وسأنهي دراستي وأشتغل وأعوّضكم عن كل ما قاسيتموه من أجلنا.

ثمّ استطرد وهو يطبع قبلة على ظهر كفّ أمّه:

ـ وسأبعثك لحجّ بيت اللهّ الحرام كما تحلمين دائما.

ـ إن شاء اللهّ يا بنيّ.

وانهالت عليه بوابل من الدّعوات...

12

صبيحة الأحد 20 فبراير 2011 م. كان التّرقّب سيّد الموقف. الجميع يضع يده على صدره متوجّسا في انتظار ما ستسفر عنه المظاهرات الّتي دعت إليها حركة 20 فبراير عبر شبكة الفيس بوك. كان واضحا أنّ الشّارع المغربيّ ـ على غير عادته في قضاياه المصيريّة ـ غير مجتمع هذه المرّة على كلمة سواء. ففي الوقت الّذي يدعو فيه شباب الحركة للتّظاهر والاحتجاج والمطالبة بالحرّيّة والكرامة والعدالة الاجتماعية وغيرها من المطالب السّياسيّة والاقتصادية والاجتماعية الّتي لا مناص منها لأيّ شعب يحلم بالعيش الكريم، فهناك شرذمة قليلة ممّن تحظر الدّولة أنشطتهم وجدوا المناسبة مواتية للجهر بمطالبهم القديمة بالتّغيير الجذري على غرار ما يحدث في دول الجوار. في حين أنّ فئة بعينها من المنتفعين من الوضع القائم كانت لا ترى أيّ مسوّغات لقيام ثورة في البلد، ولا تدع فرصة تمرّ دون أن تتبجّح بالأمن السّائد وتحذّر من الفوضى الّتي ستعمّ البلد في حال قيام أيّ حراك شعبي. ولا يمكن أبدا إغفال طائفة مهمّة من الشّعب كانت لا تزال مضادّاتها قويّة ضدّ عدوى السّياسة الّتي كانت تنتشر في الجسم العربي انتشار النّار في الهشيم. الطّائفة الصّامتة الّتي غالبا ما تصنع الفارق وتُميل إبرة الميزان لصالح كفّة فريق دون آخر سواء بصمتها أو بموالاتها ـ بعد ذلك ـ لهذا الفريق أو ذاك. وكان حسن من هذه الطّائفة. كان لا يأبه بالسّياسة ولا يلقي لها بالا. كلّ ما كان يحلم به هو أن يبرح ضفّة البؤس والشّقاء، ويعبر بنفسه وأسرته يمّ الإملاق ليرسو على شاطئ السّعادة والهناء. ولكنّه أدرك أنّ مبتغاه لا يمكن الوصول إليه إلاّ

على ظهر سفينة السّياسة. لذلك ركبها مع الرّاكبين ونفسه تفيض أملا بأن يتحقّق حلمه الدّفين...وظيفة.

في مساء ذلك اليوم، كان حسن منحشرا وسط جيش عرمرم من المتظاهرين. كانت السّاحة الشّهيرة وسط المدينة تغصّ بآلاف المحتجّين الّذين تحرّكوا في مسيرة تجوس بعض شوارع المدينة وعقائرهم تتعالى بالهتاف في حماس متّقد:

ـ " فلوس الشّعب فين مشات، سويسرا والحفلات "

ـ " الفوسفاط وزوج بحورة، وعايشين عيشة مقهورة "

ـ " الشّعب يريد إحداث التّغيير "

ـ " المخزن يطلع برّة، المغرب أرضو حرّة "

ـ ....

كان المحتجّون يهتفون ويرفعون لافتات دوّنوا فيها مطالبهم على غرار:

ـ "لا للجمع بين السّلطة والثّروة"

ـ "شعبنا شعب يريد... جمعية تأسيسية لمغرب ديمقراطي"

ـ "هذا مغرب الحرّيّات ماشي مغرب العائلات"

ـ "المساواة الحرّيّة الكرامة"

ـ "التّعليم فابور ومزيان لكلشي"

ـ "القضاء فاسد"

ـ "السّكوت علامة الخوف"

ـ "لا لقمع الحرّيّات"

ـ "الشّعب يريد إسقاط الاستبداد"

ـ ....

انخرط حسن في الاحتجاجات بعفوية وحماسة منقطعي النّظير. لقد كان راضيا تمام الرّضى عن المطالب الّتي رُفعت كالمطالبة بدستور جديد يمثّل إرادة الشّعب، وحلّ الحكومة والبرلمان، وتشكيل حكومة انتقالية مؤقّتة تخضع لإرادة الشّعب، والمطالبة بقضاء مستقلّ نزيه، ومحاكمة المتورّطين في قضايا الفساد واستغلال النّفوذ ونهب ثروات البلاد، والاعتراف باللّغة الأمازيغية كلغة رسمية إلى جانب اللّغة العربية، وكذا المطالبة بإطلاق سراح كافّة المعتقلين السّياسيين ومعتقلي الرّأي، وإطلاق الحرّيّات، وتشغيل العاطلين عن العمل، وضمان حياة كريمة، والحدّ من غلاء المعيشة، ورفع الأجور، وتعميم الخدمات الاجتماعيّة.

كان حسن يهتف بحماسة مترعة بنشوة غامرة مفعمة بآمال جمّة جعلته ينظر بعين يملؤها التّفاؤل صوب غد أفضل. كان يرى أنّه يسطّر بمداد من فخر اللّحظات الأولى لمغرب جديد. إنّه يقف على أعتاب مغرب الغد.

كان يهتف في حماسة، ويتقدّم في اندفاع عندما لمحها من بعيد. تسارع وجيب قلبه، وأحسّ بقشعريرة غريبة تسري في بدنه. شقّ طريقه بين الحشود حتّى وضع نفسه جنبا إلى جنب قرب حبيبته.

في هذه اللّحظة بالضّبط أحسّ وكأنّ خجله تبخّر في خضمّ هذه الضّوضاء الصّاخبة، شعر وكأنّ حياءه انفلت منه خلسة لتدوسه أقدام المتظاهرين وليجد نفسه يلتفت إليها في جرأة وابتسامة عريضة تغزو ملامحه وهو يصيح بصوت متحشرج:

ـ رجاء!

رمقته بنظرة مرتابة وابتسمت مجاملة. لكنّها ما فتئت أن أشاحت بوجهها عنه.

كان يدرك أنّها لا تعرفه، فأنّى لها أن تعرف أنّها معبودته الّتي لم يخفق قلبه لسواها. ولكنّه كان عاقدا العزم على أن يستغلّ الموقف الّذي أمدّه بجرعات زائدة من الشّجاعة قد لا يجدها في موقف آخر.

صرخ محاولا قهر الصّخب الّذي يصمّ الآذان :

ـ اسمي حسن، زميلك في الكلّيّة .

وكأنّه لمح من خلال حركة شفتيها أنّها دمدمت:

ـ تشرّفنا.

كانت نسبة الأدرينالين في دمه قد بلغت أعلى مستوياتها وهو يسير جنبها في زهو، وقد شغلته عن الهتاف، فشرع يختلس منها النّظرة تلو الأخرى وهو يرتّب أفكاره المبعثرة لعلّه يعثر على فكرة تيسّر عليه وصل حبل الودّ مع محبوبته الّتي كان يشعر أنّها غدت في هذه اللّحظة أقرب إليه من حبل الوريد. كان يتمنّى أن يطول زمن المظاهرة دهورا حتّى يبقى قرب حبيبته، ينظر إليها في وله، يهمس في أذنها في شوق، ويتنشّق أنفاسها في لذّة. ولكنّ اللّحظات السّعيدة دائما ما تدفع عقارب السّاعة للتّغاضي ـ برعونة ـ عن احترام السّرعة القانونية للدّوران لتنقضي السّاعات الطّوال وكأنّها دقائق معدودات، لذلك فقد انفضّت المظاهرة بسرعة قياسية، وانفرط عقد المحتجّين، وهدأت شوارع المدينة من ذلك السّيل الهادر الّذي كان ينساب فيها قبل قليل. إلاّ أنّ حسن أبى أن يغادر الشّارع ذلك المساء غير آبه بتلك النّسمات الباردة الّتي كانت تهبّ وكأنّ حرارة تلك المشاعر الجيّاشة الّتي اجتاحته وهو قرب حبيبته بعثت فيه دفئا من نوع خاصّ. دفء يغنيه عن جميع وسائل التّدفئة الأخرى. قضى زهاء السّاعة وهو يجوب شوارع المدينة لا يلوي على شيء، بينما كان فكره يحاول أن ينجز حصيلة لهذه الأمسية الاستثنائية في حياته. إنّها حصيلة إيجابية ولا شك. تنهّد في ارتياح وراح يعدّد مكاسبه. لقد أحسّ وكأنّه للتّوّ صرخ صرخة الولادة المدوّية بالتّزامن مع صرخته الاحتجاجية المطالبة بحقوقه في العيش الكريم، شعر وكأنّ حبله السّرّي قُطِع قبل لحظات ليقطع نهائيا مع عهد الخنوع والقهر. أحسّ بدماء ثوريّة تجري في أوردته. نعم لقد رفع لواء الثّورة، بل الثورتين:

ثورة عامّة ضدّ الفساد شارك فيها إلى جانب قطاع مهمّ من الشّعب، وثورة خاصّة ضد خجله الّذي لطالما ألجم لسانه عن البوح بحبّه لمحبوبته. صحيح أنّه لم يبح بعد بمكنون قلبه، ولكنّه كان راضيا كلّ الرّضى بابتسامة وكلمة. إنّها ليست إلاّ البداية، مجرّد غيض من فيض. يشعر الآن أكثر من أيّ وقت مضى أنّه مدجّج بما يكفي من أسلحة ليواجهها بقلب جسور لا يهاب المجابهة.

ستنجح الثّورة، بل ستنجح الثّورتان، هكذا كان منهمكا في التّفكير عندما تناهى إلى مسمعه صوت من الخلف:

ـ حسن.

استدار ليلمح خالد يلتهم المسافة الفاصلة بينهما وهو يحاول الوصول إليه في أقصى سرعة ممكنة. توقّف برهة إلى أن لحق به. حيّاه بابتسامة عريضة.

أسلم حضنه لجسم صديقه الثّخين ويداه تربّتان على ظهره في ودّ ظاهر وهو يقول:

ـ أتعبتني يا رجل.

قال حسن وهو يسحب جسمه من بين ذراعي صديقه:

ـ كيف حالك يا خالد؟ ما هذا الغياب؟

قال خالد ويداه تمسكان بمنكبي صديقه:

ـ بخير ولله المنّة. وأنت ما أخبارك؟

ـ على أحسن ما يرام.

أفلت حسن من يديّ صديقه بلطف. واصلا طريقهما جنبا إلى جنب ولساناهما طفقا ينبشان في اشتياق وحنين طفولتهما الغابرة الّتي دكّتها بقسوة رياح الأيّام العاتية، كما يدكّ المدفع البنيان، لتشيّد على أنقاضها شبابا أبى أن يأتي إلاّ وهو مثقل بأطنان من الهموم ينوء بحملها حتّى أعتى الرّجال وأشدّهم جسارة. لم تكن الطّفولة بكلّ براءتها وطيشها ونزقها هي من استأثرت بالنّصيب الأوفر من حديث الصّديقين ذلك المساء، طالما أنّ اليوم لم يكن كغيره من الأيّام، لذلك لم يكن غريبا أبدا أن يسحب الحديث عن التّظاهر والاحتجاج البساط من تحت أقدام أيّ حديث سواه ليطفو على السّطح بوضوح ويضحى موضوعا دسما أفضى لمماحكة بطعم السّجال بين الطّرفين كشفت لهما بالملموس عمق الخلاف بينهما حول ما تضجّ به السّاحة السّياسية العربية عموما والمغربية خصوصا من أحداث لا يستطيع حتى أبرع المحلّلين السّياسين التّكهّن بما ستؤول إليه. لم يكن اختلاف رؤيتيهما السّياسية ليفسد الودّ الّذي تقتضي الأعراف والتّقاليد وأخلاق الإسلام أن يُعامَل بها الضّيف، لذلك فعندما قبل خالد ـ بصدر رحب ـ دعوة حسن لمشاركته وجبة العشاء في بيته، أبدى المضيف من اللّين الشيء الكثير، وحاول في أحايين كثيرة، بكلّ ما أوتي من فطنة ودهاء، أن يجرّ الحديث لبرّ الأمان درءً لمفاسد جمّة ليس أقلّها غرق وشيك في وحل السّياسة المقيتة الّتي قد يقوده الغوص عميقا في جدالاتها البغيضة إلى سوء التّصرّف مع صديقه في تناقض سيكون صارخا مع ما يمليه عليه دينه الحنيف من إكرام وفادة ضيفه.

13

ودّع خالد صديقه. وما إن أصبح على بعد خطوات من البيت حتّى أخرج هاتفه المحمول في نفاد صبر.

ركّب الرّقم وانتظر حتّى جاءه صوت خشن من الجانب الآخر للخطّ:

ـ السّلام عليكم يا خالد. كيف الحال؟

ـ وعليكم السّلام. بخير ولله المنّة وأنت؟

ـ أيضا بألف خير. شكرا لاهتمامك.

استطرد بنبرة معاتبة:

ـ لابدّ أنّ مكالمتك لها صلة مباشرة بمظاهرات اليوم. تريد طبعا أن تعرف زخم الاحتجاجات أليس كذلك؟

ـ دعك من المظاهرات والاحتجاجات الآن يا عمر وأعرني سمعك لأنّني أريدك في أمر هامّ.

ضحك عمر في استهزاء وهو يقول:

ـ أمر هامّ؟! وهل في قاموسك الثّوري ما هو أهمّ من تغيير واقع البلاد المزري كما تقول دائما؟!

ـ نعم. تغيير واقعك المزري أنت.

- أنا؟!

ـ نعم أنت. أم أنّك تنازلت عن طلبك؟

قال عمر وقد تخلّى عن استهزائه:

ـ هل تقصد ...؟ وما الّذي ذكّرك بطلبي الآن وقد خلتك نسيته للأبد؟

ـ احزر أين كنت قبيل قليل؟

ودون أن ينتظر جوابا واصل:

ـ لقد كنت في بيت حسن. التقيته صدفة هذا المساء. هل تذكر أخته هناء؟

ـ هناء؟! ما بالها تلك الطّفلة الصّغيرة؟

ـ لم تعد صغيرة يا صديقي.

مرّ بعدها كلّ شيء بسرعة رهيبة لم يتوقّعها أحد. أسبوعان كانا كافيين ليتزوّج عمر من هناء بدون حفل زفاف ويرحل بها إلى مدينة بعيدة حيث كان يشتغل. تزوّج بها رغم الرّفض الشّديد لحسن في بادئ الأمر. إلاّ أنّه ما لبث أن رضخ لرغبة أمّه الملحّة الّتي كانت ترى أنّ سعادتها تكمن في سعادة ابنتها، والّتي لن تتأتّى إلاّ بزواجها قبل أن يفوتها قطار الزّواج ويتركها ضحيّة لشبح العنوسة الّتي لا ترحم. فرغم أنّها كانت أحوج ما تكون لخدماتها، إلاّ أنّها، وككلّ أمّ في الدّنيا، كان أقصى ما تتمنّاه أن ترى ابنتها عروسا تغرّد ترانيم السّعادة في عشّ بعلها.

14

علاقة مريبة عبثت بعقول الطلاّب تلك الّتي لاحت بوادرها في فضاء الكلّية مؤخّرا بين ابراهيم ورجاء. فضاء كان يزداد تلبّدا يوم بعد يوم بغيوم من القصص العاطفية الّتي كان يحرص بطلها المشاكس ابراهيم على بثّها على مسامع زملائه كلّما سنحت له الفرصة بذلك. كان كمال يتابع تفاصيل العلاقة عن كثب بعقل مخطوف، وقلب مبهور، وعينين حاسدتين. فكلّما أبصرهما منهمكين في الدّردشة على مرأى من الجميع، إلاّ وتأجّجت نيران الغيظ والحنق في قلبه. كان يشعر بالمرارة وهو يرى غريمه يصول ويجول بفخر على حلبة الرّهان مرسلا إليه إشارات غير مشفّرة أنّه أصبح قاب قوسين أو أدنى من كسبه. كان يتجرّع المهانة والإذلال كلّما تخيّل نظرة العفريت الخبيثة ـ التي يعرفها جيّدا ـ بعد أن يأتيه مزهوّا بعيد كسبه للرّهان الّذي أضحى قابعا على تخومه لا تفصله عنه إلاّ خطوة أو خطوتان، لذلك لم يكن بمقدوره منع جرعات من الغلّ والحقد من التّسرّب لقلبه على حين فجأة من كلّ أواصر الصّداقة الّتي تجمعهما. الغلّ والحقد اللّذان طفح بهما قلبه مع توالي استفزازات غريمه ألجْما عقله عن التّفكير في تفاصيل هذه العلاقة وملابساتها، لذلك لم يكن يرى أمامه سوى هزيمة مخزية تلوح بوادرها في الأفق. أمّا حسن فقد نشبت بداخله حرب شعواء طرفاها عقل يؤمن بما يرى ويسمع، وقلب يتعامى عن كلّ شيء وينساق خلف الأحاسيس انسياق الكفيف خلف عكّازه. هل يصدّق عقله الرّاجح الّذي يدين ـ بغير قليل من القرائن ـ حبيبته بتهمة السّقوط المدوّي في مستنقع الرّذيلة؟ أم يصدّق قلبه

الطّيّب الّذي يصرخ مع كلّ نبضة من نبضاته ببراءتها وإن بـدون دلائـل؟ كـان الأمر بالنّسبة لحسن أشبه ما يكون بمحاكمة يتقمّص فيها دور القاضي، في حين تقـف رجـاء في قفـص الإتّهـام، بيـنما يقـف أمـام المنصّـة حشـد مـن شـهود الإثبات...وبعد أطوار محاكمة طويلة آن للقاضي أن يصدر حكمه الّـذي فاجـأ الجميع...البراءة. نعم... لقد كان حسن يرى أنّ رجاء بريئة بـراءة الـذئب مـن دم يوسف. فهل هو حسـن الظّـن النـابع مـن طيبوبتـه؟ أم هـي قـوّة الحـدس الفطريّة؟ أم هي السّذاجة المستورة خلف حجاب الطّيبوبة؟ أم...؟

كانت العلاقة المشحونة بين الأصدقاء الثلاثة تنذر بخطر داهم وشيك قد يصدّع جدار صداقتهم الضّاربة جذورها في القدم من حيث لا يدرون. فقد أصبح كلّ نقاش بسيط بينهم يفقد بوصلته منحرفا عن مساره الصّحيح، متحوّلا إلى مشادّات كلامية وملاسنات وعتاب لا ينتهي إلاّ بعد أن يتحجّج كلّ منهم بحجج واهية يداري خلفها عجزه عن الإفصاح عن المبرّرات الحقيقية.

كان صراع محموم تدور رحاه بينهم في السّر والعلن. ففي الوقت الّذي يتصارع ابراهيم وكمال على رهان سخّر له كلّ منهما كلّ ما في جعبته من طاقة وحنكة ودهاء، فإنّ حسن كان قد وطّن العزم على أن يسير على درب الثّورة إلى نهايته بعدما قرّر أن ينتفض ضدّ خجله اللّعين فيقتحم قلب محبوبته كما يقتحم فارس مغوار حصنا منيعا بعد معركة حامية الوطيس. وكيف لا ينجح وهو

يعيش "عصر الثّورات"؟ كيف لا ينجح وهو الّذي يخوض غمار المعركة بمعنويات ارتفعت حتّى زاحمت غيوم السّماء؟ كيف لا ينجح وقد استمرأ النّجاح من قبل كما يستمرئ الغرثان لقمة سائغة؟ ارتفعت معنوياته واستمرأ النّجاح وهو يرى بقلب مترع بالحبور والأمل قطار الثّورة يسير سريعا على السّكّة الصّحيحة في اتّجاه مغرب أفضل. لا محالة ستنجح الثّورة، بل لقد بدأت فعلا تباشير النّجاح تهطل كقطرات غيث شرعت تروي أرضا عطشى بعد سنوات عجاف. هكذا كان يحدّث نفسه قبل أسبوع وهو يتابع بحماس ثوري ملتهب خطاب الملك في التّاسع من مارس وهو يعلن عن تعديل الدّستور وإقالة الحكومة والبرلمان وإجراء انتخابات مبكّرة. كادت العبرات تنزلق على خدّيه وهو يتابع باهتمام منقطع النّظير الخطاب الملكي. استقلّ مركبة الزمن وسافر إلى المستقبل في خياله الحالم للحظات راسما صورة زاهية عن مغرب الغد. مغرب الديمقراطية وحقوق الإنسان والعيش الكريم. مغرب يقايض سجّانوه الأحرارَ بالفاسدين. مغرب في نسخته الجديدة. نسخة ما بعد الثّورة.

15

كاد ذلك اليوم من أيّام مارس أن يكون يوما عاديا من أيّام السّنة. كاد أن يُرمى في مزبلة الماضي دون أن يترك أيّ أثر يذكر في ذاكرتي كمال وحسن لولا ما حدث في مسائه عندما تلقّى كمال اتّصالا من ابراهيم يطلب منه الحضور على عجل رفقة حسن للعنوان الّذي أمدّه به. وما هي إلاّ ربع ساعة حتّى وجد كمال نفسه في المكان المحدّد يجلس في مقعده في السّيّارة وكأنّ تحته الجمر، وبجانبه حسن وهما يتجادلان في حيرة ونفاد صبر في انتظار قاتل لما سيخرجه ابراهيم من جرابه.

مرّت عليهما خمس دقائق كأنّها خمس ساعات قبل أن يرتفع رنين الهاتف. ضغط كمال على زرّ قبول المكالمة في توتّر بعدما عاين اسم المتّصل.

جاءه صوت ابراهيم وهو يقول في شيء من التّهكّم:

ـ هل أحضرت معك الشّاهد؟

قال كمال في ضيق وقد بدا أنّه بدأ يعي ما يرمي إليه ابراهيم:

ـ تقصد حسن؟ نعم هو بجانبي. تكلّم بسرعة. ماذا هناك؟

ضحك ابراهيم بخبث وهو يقول:

ـ راقبا باب العمارة جيّدا. ولا تذهب قبل أن تتسلّم هديتك.

ثمّ أنهى الاتّصال.

تساءل حسن في استغراب:

ـ ماذا هناك؟

أجاب كمال وهو يشير لباب العمارة في الجانب الآخر للشّارع:

ـ يطلب منّا أن نراقب باب ال...

تجمّدت الكلمات في حلقه، وجحظت عيناه دهشة وهو يرى رجاء تخرج من باب العمارة وهي تزيح بكفّها في دلال ظاهر خصلات من شعرها انسدلت على عينيها النّجلاوين. اكتسى وجه حسن بالذّهول وقد عنّ له أنّه لا يفقه شيئا ممّا يدور حوله بعدما فشلت قدراته الذّهنية في ربط العلاقة السّببية بين اتّصال ابراهيم وخروج رجاء من العمارة. تبادل الصّديقان نظرات حيرى تحمل في طيّاتها ألف سؤال، قبل أن ينتقلا ببصريهما تجاه رجاء الّتي كانت تشير بكفّها إلى سائق طاكسي صغير. ركبت وغادرت تاركة وراءها الصّديقين يلجّان في يمّ من الغموض.

ـ ما الّذي يحدث هنا؟

تساءل حسن وقد ضيّق حاجبيه في استغراب.

زفر كمال في ضيق وهو يقول في استسلام:

ـ يبدو أنّ العفريت فعلها.

ـ ماذا تقصد؟

كان كمال يهمّ بالكلام عندما تراءى له ابراهيم يخرج من باب العمارة يخفي كفّيه في جيبي سرواله ويمشي في خيلاء وشبح ابتسامة لئيمة تطفو على وجهه. عبر الشّارع واقترب من السّيّارة.

أدخل رأسه من نافذتها وهو يقول:

ـ مرحبا. لابدّ أنّك تنتظر الهديّة؟

قال كمال بحنق شديد:

ـ هات ما عندك.

أخرج ابراهيم من جيب سرواله قطعة قماش سوداء، أشبه ما تكون بخرقة بالية، وألقاها في حجر كمال وهو يقول بنبرة تحمل كلّ معاني الشّماتة:

ـ ألم أقل لك يومها أنّني سآتيك منها بما عجزت أن تأتيني به.

ثمّ استطرد بعد أن استدار وولاّهما ظهره وقال وهو يبتعد:

ـ تبّان الفاتنة.

لم يغمض لحسن جفن تلك اللّيلة فقد امّحى من قاموسه مصطلح "نوم" إلى أجل غير مسمّى حتّى أصبح مجرّد الحلم بإغفاءة طفيفة مطلبا بعيد المنال. كانت الأفكار تفور في ذهنه فوران الماء في قدره، والهواجس تحتدم في دواخله احتدام الحرّ في يوم قائظ، والمرارة تنخر كيانه كما ينخر السّوس الخشب حتّى بدا وهو ممدّد على فراشه كورقة هجرتها الحياة بعدما عصفت بها رياح الخريف المدمّرة. فتارة يرمي بالمسؤولية كاملة بكلّ ثقلها على كتفي صديقيه، فيضع يده على الزّناد ويصوّب بندقيته تجاههما استعدادا لرشقهما، بلا رحمة، بوابل من رصاصات اللّوم والعتاب عقابا لهما على حقارتهما وسفالتهما ونذالتهما الّتي تجاوزت كلّ الحدود وضربت كلّ القيم عرض الحائط. فلم يكن يخطر بباله

حتّى في أسوء جواثيمه أن تصل بهما الوقاحة إلى الاستهتار بأعراض النّاس وشرفهم بهذه الطّريقة الدنيئة. لم يكن يفهم كيف تدهورت قيمة أعراض النّاس إلى الحضيض حتّى باتت في بورصة البعض لا تتعدّى الدّرهم. حقّا إنّها التّفاهة في أبشع تجلّياتها. وتارة يوجّه قوسه في اتّجاه رجاء، وينبري في تأهّب ليمطرها غزيرا بسهام الملامة توبيخا لها على سقوطها الفاجر في مستنقع اللّذّة النّتن وهي الّتي كان يحسبها متينة بما يكفي لكي لا تجرفها سيول الشّهوات الهادرة مهما بلغ مقدار قوّتها. السّافلة لم تكن أبدا جديرة بثقته بها. وتارة أخرى يقف أمام نفسه وهو متسلّح بسياط النّدم ومتحفّز لجلدها بلا شفقة تقريعا لها على سذاجتها بل وغبائها.

فكّر حسن : "من الواضح أنّ السّذاجة والغباء في زماننا هذا أصبحا وجهين لعملة واحدة".

ولكن مهلا...! هناك سؤال ومض في ذهنه، وميض البرق في السّماء، في اللّحظة الّتي ضبط فيها رجاء متلبّسة وهي ترسف في أصفاد الخيانة المذلّة، إن جاز له أن يسمّيها كذلك. سؤال بدأ صغيرا منكمشا في بقعة قصيّة من دماغه مثل بالون فارغ من الهواء، لكنّه ما لبث أن تمدّد وتمطّط حتّى أصبح كمنطاد هائل ضاق به هذا الدّماغ حتّى أضحى مهدّدا بالانفجار في أيّ لحظة. بأيّ صفة ينصّب نفسه قاضيا على الآخرين؟ سؤال بقدر ما بدت له إجابته منذ الوهلة الأولى بديهية، بقدر ما تمخّضت عنه أسئلة أخرى كثيرة. في أيّ خانة من

خانات العلاقات الاجتماعية تحديدا تتموقع علاقته برجاء؟ حبّ؟ صداقة؟ أم زمالة؟ وهل تخوّل له هذه العلاقة أن يزجّ بنفسه في حياتها الشّخصية بهذا الإسفاف؟ يعلم يقينا في قرارة نفسه أنّها لا تعدو أن تكون مجرّد زميلة في الكلّية، أو في أحسن الأحوال رفيقة على درب الثّورة. يعي كلّ الوعي أنّه لم يتجرّأ ويكلّمها إلاّ في تلك المرّات القليلة مساءات الآحاد في شوارع المدينة عندما يحتدم الشّرر الثّوري داخله كبركان غاضب وهو تائه وسط أمواج بشرية تتعالى عقائرها بالهتاف والصّياح. يعي ذلك تماما كما يعي أنّها ولاشكّ لا تذكره إلاّ حينما تراه. فلماذا يكدّر عليه ليله وينغّص عليه نومه من أجلها؟ هل امتطى صهوة أحلامه بلا لجام وانطلق حتّى تهيّأ له أنّ الحسناء يمكن يوما أن ترتمي في أحضان الوحش؟ هل تمادى في الأحلام حتّى تكسّرت فيه تلك الحواجز الّتي من المفروض أن تكون حدّا فاصلا بين الحلم والواقع لتلعب دورا واقيا من الصّدمات؟ ألا تمنحه الصّداقة حقّ لوم صديقيه وعتابهما أشدّ ما يكون اللّوم والعتاب؟

كان منسوب الأسئلة في داخله يزداد كلّما استرسل في التّفكير، ولم يجد صعوبات جمّة في إيجاد إجابات شافية لكلّ تساؤلاته طالما أن هذه الإجابات كانت مترسّبة في لاوعيه في انتظار الخضخضة الّتي تطفو بها إلى السّطح.

كان اللّيل قد شرع يلفظ أنفاسه الأخيرة مؤذنا بميلاد صبح جديد حينما كاد الكرى أن يطبق على أجفان حسن بعدما همد لهيب الأسئلة الّتي كانت مستعرة في عقله، غير أنّ سؤالا تفجّر من الرّماد على حين غرّة تفجّر الماء من الحجر جعله يستنفر كلّ قدراته الذّهنية من جديد . أليس المغرب، بل العالم بأسره في حاجة إلى ثورة أخلاقية قبل التّفكير في الثّورات السّياسية؟

وانخرط في تفكير عميق...

16

كان النّهار قد أوشك على أن يطوي رداءه سامحا للّيل البهيم بأن يبسط كفّه الغليظة لتحكم قبضتها على كلّ الأرجاء، حينما كانت خديجة مستلقية على سريرها في شقّتها الّتي اقتنتها منذ زهاء الشّهرين. كانت شبه عارية بعدما نجح، بالكاد، فستان نومها البنفسجي الشّفّاف في ستر النّزر القليل من جسدها السّاحر الّذي انحسر بكلّ خلاعة وابتذال. وكان ادريس مضطجعا بجانبها وهو غارق في سهوم عميق وقد عنّ عن مفاتنها حتّى عنّ وكأنّ شأنا عظيما يغنيه عنها. بدا وكأنّما تسلّل إليه الملل أو عافت نفسه تلك اللّذّة المحرّمة الّتي انغمس فيها من رأسه حتّى أخمص قدميه وكأنّه يسابق الزّمن لعلّه يطفئ لهيب شهوته الّتي استبدّت به قبل أن ينقضي غلواء شبابه.

قالت خديجة وقد زوت ما بين حاجبيها في ضيق:

ـ أراك مكروبا اليوم على غير عهدي بك عندما تكون معي!

أضافت بعد أن أرسلت أصابعها لتعبث بخصلات شعره الملساء وكأنّها تصل رحما كادت تنقطع:

ـ ألم تعد تشعر بالسّعادة معي؟

ابتسم في شيء من التّهكّم وهو يقول:

ـ لا سعادة مع كبرياء مهيضة يا عزيزتي.

ـ ومن الّذي سوّلت له نفسه أن يخدش كبرياء حبيبي؟

لم تنتظر ردّا بل استطردت بنبرة ماجنة وهي تمرّر سبّابتها على شفتيه في غنج شهواني:

ـ دعك من هذا الآن يا حبيبي.

ثمّ تابعت بصوت ملتهب ويدها تتحسّس حلمة نهدها وقد تعالت أنفاسها بعد أن وصلت غلمتها ذروتها:

ـ هيت لك.

أشاح بوجهه عنها في احتجاج وكأنّه يدعوها للكفّ عمّا همّت به قائلا:

ـ خديجة.

لوت شفتيها في استياء وقالت وقد استعادت نبرتها الجادّة:

طيب. ما الأمر؟

بدا وكأنّه تيقّظ من سهومه على حين فجأة.

قال في تحفّز وبريق خبيث يلمع في عينيه:

ـ ماذا عن وعدك لي؟

ـ الشّقّة؟

ـ نعم.

ـ لا تتسرّع حبيبي. عمّا قريب ستكون من نصيبك.

ـ سنرى.

ثمّ استطرد بلؤم:

ـ أتعلمين حبيبتي؟ لم أعد أطيق النّظر في وجه تلك الدّميمة. أحسّ بالاشمئزاز والقرف. شتّان بينكما. حريّ بك أن تكوني السّيّدة وهي الخادمة.

ابتسمت في انتشاء وهي تقول:

ـ ولكن سعاد ليست بالبشاعة الّتي تصوّرها.

ـ مهما حاولت تلميع صورة تلك الرّبلة القبيحة أمامي فلن تفلحي. لذلك رجاءً لا تحاولي مجدّدا، فكلّ ما يعنيني الآن هو كيف أتدبّر ما يكفيني من مال لتطليقها.

ـ صحيح عزمت على تطليقها؟! لا أكاد أصدّق أنّك قد تستغني عن الدّجاجة الّتي تبيض لك ذهبا.

ـ عن أيّ ذهب تتحدّثين. إنّ الحاجّ علي رجل جعد الأنامل. غلّت يده إلى عنقه منذ زمن بعيد. ثمّ إنّ أنفتي تعفّ عن التّمرّغ في التّراب الدّنس المتساقط من قدميه الوسختين.

كادت تقول له: أنفتك تعفّ عن التّمرّغ في التّراب الدّنس المتساقط من قدمي الحاجّ الوسختين، ولكنّها لا تعفّ أبدا عن التّمرّغ بكلّ صفاقة في أموالي والّتي هي في النّهاية أموال الحاجّ. ولكنّها أحجمت.

قالت بعد أن خنقت ضحكة هازئة كادت تفضح مشاعر الاحتقار المتأجّجة بداخلها:

ـ ربّما نسيت أنّني عشت في منزل الحاجّ ردحا من الزّمن وأعرفه كما أعرف نفسي. فرغم مثالبه الكثيرة إلاّ أنّ الكرم قد يكون هو المنقبة الوحيدة فيه.

هزّ كتفيه في لا مبالاة وهو يقول:

ـ ربّما. ولكن معي فالأمر ليس كذلك.

ثمّ قال بعد أن ضيّق حاجبيه في استغراب:

ـ أتعجّب كيف تهيمين فيه مديحا بعد كلّ الأذى الّذي سبّبه لك! يبدو أنّك نسيت كيف طردك شرّ طردة ولم يحفل بتوسّلاتك ودموعك، وذلك كلّه من أجل مصلحته.

ـ ومن أجل مصلحتك أيضا.

ضحك مستهزئا وقال :

ـ من أجل مصلحتي؟! لا يا عزيزتي. ثقي أنّه لم يفعل ذلك لا من أجل مصلحتي ولا حتّى من أجل مصلحة ابنته. ذلك الأناني المتغطرس لا يأبه إلاّ لمصلحته. مصلحته وكفى.

ثمّ أضاف بعد أن أفلح من جديد في إضرام نار الحقد في قلبها:

ـ ولكنّ الغبيّ لم يضع في حسبانه أنّه حينما كان يرميك في الشّارع إنّما كان يسلّمك مفاتيح خزانته لتودّعي حياة الإملاق دون رجعة وتهرولي رافلة في سمت الثّراء.

ثمّ استطرد بخبث من ينتهز كلّ فرصة أتيحت له:

ـ على ذكر الثّراء. إنّني في حاجة ماسّة إلى المال. اتّصلي بالشّيخ المراهق ليكفّر بنقوده عمّا اقترفه ب...

ثمّ أشار إلى ما بين فخديه بحركة معبّرة وهو يضحك ضحكة مبتذلة.

لم تتفوّه خديجة بكلمة واحدة، فهي تعلم كلّ العلم أنّه ما إن يطلب الاتصال بالحاج إلاّ ولن يتراجع قبل أن ينال مأربه. لم تدر أبدا كيف انصاعت لرغباته الشّيطانية بكلّ دماثة بعدما طردت من بيت الحاجّ علي. أقنعها، بتآمر مع غيظها آنذاك، بأن تشاركه جريرته الدّنيئة للإيقاع بالحاجّ في الشّرك.

جاءها بعينين تبرقان طمعا وبقلب يخفق جشعا باسطا أمامها بدهاء تفاصيل الخطّة المحبوكة الّتي ستمكّنهما من ضرب عصفورين بحجر واحد. ستطوّق هي جيد الحاج بحبل من مسد انتقاما منه. وسيرتمي هو في حضن حبيبته الّتي سلبته لبّه من أوّل نظرة ذلك اليوم في ذلك المحلّ لبيع الملابس النّسائية. انقضّ عليها انقضاض الكاسر على فريسته وهي خائرة القوى مهيضة الجناح، تتمرّغ في المذلّة تمرّغ الديك المذبوح في دمائه، وحمم من الغيظ والحنق تفور في قلبها على الحاج الّذي ألقاها في غياهب المجهول دون كنّ يقيها حرّ

الصّيف وقرّ الشّتاء وتستطعم فيه لذّة الكرى، ودون عال ولا مال يحميها من لدغات الغرث ولسعات الطّوى. ألقاها بعد أن ولجت بيته وهي صبيّة ترفل في النّقاء والعفّة والطّهارة، وما خرجت منه إلاّ وهي ترسف صاغرة عضيضة في أغلال الانكسار والامتهان والحقارة. خرجت بعد أن ذبح الحاج عذريتها على مسلخ المتعة المحرّمة الّتي أسفرت عن جنين سكن أحشاءها على حين غرّة منها.

جاءها ادريس في اللّحظة الّتي كانت فيها في أمسّ الحاجة ليد تنتشلها من وحل الوهن الّذي كانت تتخبّط فيه تخبّط المخمور في ليلة ديجور، فما ملكت إلاّ أن مدّت إليه يدها في إذعان ليقودها في طريق الفجور. لم يأل جهدا في حثّها المرّة إثر الأخرى على ابتزاز الحاج الّذي لم يجد بدّا من الرّضوخ لرغباتها الّتي لا تنتهي إلاّ لتبدأ من جديد. كان يدفع لها بسخاء درءً لفضيحة كانت لتعصف بحياته الأسرية والسّياسية للأبد. وكانت تدفع لادريس بسخاء عرفانا بجميله بعد وقوفه إلى جانبها، واستدرارا لمحبّته بعد أن شغفت به حبّا لعلّها ترتقي في سلّم أولوياته من مرتبة العشيقة إلى مرتبة الزّوجة. لا تشكّ أبدا أنّ الحاج قد أوغر صدرها عليه بفعلته الشّنيعة تلك الّتي قضّت مضجعها لردح من الزّمن، ولكنّها لا تنكر البتّة أنّها كثيرا ما قضت لياليها ساهدة تعضّ أناملها ندما على مجاراتها لادريس في ردّة فعله الخبيثة تلك الّتي أبان فيها عن انتهازية بشعة. لذلك لم تتردّد في أحد الأيّام، وبعد أن ظلّت مدّة طويلة ترزح تحت وطأة ندم قاتل، لم تتردّد في أن تجهض جنينها، وكأنّها بذلك رمست خطيئتها وندمها

وحزنها. أرغى ادريس وأزبد عندما علم بالخبر، وأحسّ وكأنّها خانته وخانت نفسها عندما فرّطت ببلادة في الجنين الّذي يدرّ عليهما أموالا طائلة بكلّ سهولة ويسر. لذلك استنفر كلّ ما في جعبته من خبث، واستدعى كلّ ما أوتي من مكر لكي يقنعها أن تكتم الأمر عن الحاجّ وتتمادى في ابتزازه وكأنّ شيئا لم يكن. وكذلك فعلت .أوهمته بعد ذلك أنّها وضعت مولودها لتغتنم الفرصة للزّيادة في طلباتها، لدرجة المغالاة، والّتي أصبحت تشمل المأكل والمشرب والملبس والتّطبيب وغيرها كثير ليس آخرها الشّقّة الّتي اقتناها لها قبل شهرين...

أخذت هاتفها وبحثت عن رقم الحاجّ في سجلّ أرقامها.

ضغطت على زرّ الاتّصال وانتظرت لحظة حتّى جاءها صوته فاترا:

ـ أنت مجدّدا؟! ماذا تريدين؟

ـ أنت تعرف أنّني لا أريد منك شيئا. ابنك هو من يحتاج إليك.

زمجر بصوت غاضب مدوّ كالرّعد:

ـ للمرّة المليون أقول لك لا تقولي ابني.

زفر وحوقل ثمّ لاذ بالصّمت لبرهة واستطرد بعد أن خمد بركان الغضب في قلبه قليلا:

ـ هيه...ما به الولد؟

ـ مريض و ...

قاطعها في نفاد صبر وكأنّه سئم من تلك الأسطوانة الّتي حفظها عن ظهر قلب ثمّ قال:

ـ حسنا. الوقت متأخّر الآن. غدا أدفع المال في حسابك.

ثمّ أنهى المكالمة.

ابتسم ادريس في ظفر وهو الّذي سمع أطوار المكالمة المقتضبة عبر مكبّر صوت الهاتف. رفع إبهامه في استحسان، ثمّ مال على خديجة وانثال عليها، في اشتهاء، بوابل من القبلات في خدّيها وفمها ورقبتها بعد أن تيقّظت غرائزه من سباتها على حين فجأة.

17

بعد حوالي ثلاثة أشهر منذ مشاركته لأوّل مرّة في المظاهرات، ارتفع منسوب الوعي السّياسي لدى حسن حتّى وصل حدّ الهوس. فقد أدمن متابعة مستجدّات الثّورة الّتي كانت تعمّ مختلف بقاع الوطن العربي على شاشة التّلفاز الّتي لم تعد وحدها تشفي غليله، لذلك مضى يروي غلّته الشّديدة للأخبار بعدما اقتنى مذياعا صغيرا أضحى صديقه الوحيد الّذي لا يفارقه حتّى وهو منتصب خلف عربته في ركن ما من أركان المدينة ينتظر زبونا يلفظه باب مسجد أو تبصقه حارة أو شارع. كان ذلك الرّهان القبيح قد بتر صداقته بكمال من جذورها بعدما لم تقدر نفسه العفيفة على استساغة كمّ التّفاهة الّتي تعامل بها صديقاه مع الأمر. وتغيّرت نظرته لرجاء مئة وثمانين درجة. فبعد أن كان ينظر إليها نظرة احترام ووقار ويضعها في مصافّ العفيفات الطّاهرات، أضحى اليوم ينظر إليها نظرة امتهان واحتقار وأصبح يضعها في سلّة واحدة مع الفاسقات الدّاعرات. لذلك وجد نفسه من جديد يتقوقع في شرنقة الوحدة لا يتسلّل منها إلاّ ليتظاهر ثمّ ما يلبث أن يعود لعزلته من جديد بعدما يكون صوته قد بحّ والدّماء قد تجدّدت في شرايين حلمه القديم.

في مساء ذلك الأحد من شهر ماي خرج حسن من خندق الانطواء متسلّحا بالإقدام والشّجاعة، ممتطيا صهوة الأمل والرّجاء. وأخذ سمته، مخلّفا وراءه غبار اليأس والقنوط، متوجّها صوب شوارع المدينة توجّه المكتئب

صوب الطّبيب النّفسيّ الّذي يسرّي عنه بعدما يعيره سمعه باهتمام لينفض عن قلبه ما شابه من همّ وما اعتراه من غمّ.

شرع بالصّياح كعادته بعد أن ظنّ أنّه انصهر وسط المتظاهرين، بيد أنّه ما لبث أن أحسّ بأحاسيس غريبة تجتاحه بعدما أجال بصره حواليه ليلحظ بغير كثير من العناء تغيّرا جذريا في بنية المحتجّين. كانت أزياؤهم المميّزة وملامحهم الجادّة تقول أنّهم عدليون. وكانت أعدادهم تتزايد باطّراد منذ اليوم الأوّل للتّظاهر حتّى أصبحوا اليوم الكيان الأبرز في صفوف المتظاهرين. لم يكن يعيرهم أيّ اهتمام، وما كان ليفعل وهو الّذي كان ينفر من السّياسة نفور المرأة النّاشز من زوجها. إلاّ أنّه، ومنذ أن رأى خالد تلك الجمعة على باب المسجد وعلم بانتمائه السّياسي، بدأ يتحرّى عنهم بواعز الفضول الّذي يجري في النّفس البشرية، المجبولة على حبّ الاطّلاع على ما يدور خلف الأبواب المغلقة، مجرى الدم. ولأنّ كلّ ممنوع مرغوب، فقد راح يستقي الخبر تلو الآخر ودهشته تزداد كلّما تسرّب إلى علمه أنّ هذا الشّخص أو ذاك من جيرانه أو معارفه عضو في الجماعة. ظلّ حسن يتابع المشهد بشيء من الذهول الّذي ما كاد يثوب عنه حتّى غاص فيه عندما تعالت العقائر بشعارات جديدة على غرار:

ـ "الشّعب يريد إسقاط الاستبداد"

ـ "تقاد ولاّ خوي البلاد"

ـ "هذا لمغرب وهذا ناسوا والحاكم يفهم راسو"

ـ ....

انتابه شعور طفل صغير تلذع الحرقة جوارحه وهو يعاين في صغار وانكسار رفيقه القويّ يسطو على لعبته المحبّبة إلى قلبه وهو مقيّد بأغلال الضّعف والعجز. أحسّ وكأنّ أفراد الجماعة قراصنة تسلّلوا إلى سفينة الثّورة، على حين غفلة من شباب الحركة، محاولين تحويل اتّجاهها صوب مرفإ ملغوم. لذلك بدأت الخيبة تتملّكه، وشرع الإحباط يغرز مخالبه الحادّة في رقبة تفاؤله حتّى كاد يشهق شهقته الأخيرة.

تسلّح بما حثل في أغوار نفسه من تفاؤل وانطلق يهتف في حماسة وتحدّ وكأنّه يبرّىء ذمّته من شعاراتهم ويذكّر نفسه وإيّاهم بمطالبه الّتي خرج من أجلها:

ـ "الشعب يريد إسقاط الاستبداد"

ـ "لا لا ثمّ لا للتّهميش والبطالة"

ـ "باركا من الغلا جيب الشّعب راه خوا"

ـ ....

كان صوته بالكاد يغادر حلقه، لا لشيء إلاّ لتبتلعه أصوات العدليين الّتي كانت تجلجل في المكان بقوّة تصمّ الآذان. مرارا حاول ولكن بدون جدوى، فموازين القوى لم تكن متكافئة. مسح المكان حوله ببصره وكأنّه جنديّ في ساحة الوغى يبحث عن دعم لوجيستي بعدما أصبح على مرمى حجر من هزيمة نكراء. لمح رجاء وقد انهمكت في غمرة الهتاف فارتدّ إليه بصره خاسئا

بعدما نكأت جرحه الّذي لم يندمل بعد. فقد عادت إليه ذكرى التّبان المشؤوم من جديد لتطعنه بطعنة نجلاء أجهزت على ما تبقّى في جعبته من تفاؤل وهو الّذي لم يجد بعد جوابا شافيا لعلاقة الثّورة بالأخلاق.

كان تائها في شرود عميق حينما أحسّ بكفّ تمتدّ إلي كتفه برفق. استدار ليلمحها ترسم على وجهها ابتسامة عريضة. نظر إليها شزرا وقد تغضّنت ملامحه، ثمّ أشاح عنها بوجهه وانسلّ من بين المتظاهرين مهرولا وكأنّ شبحا يلاحقه وأسئلة كثيرة تتناسل في ذهنه كالفطريات بعد أن استفزّته البرودة القاتلة الّتي تعامله بها، وأثارت حفيظته بتجاهلها لخطيئتها العظيمة وكأنّها بريئة منها أو كأنّ ذلك اليوم المشؤوم امّحى من ذاكرتها للأبد.

18

دخل غرفة الجلوس منهك القوى بعد يوم غير موفّق وهو يمنّي النّفس بأن تُفرخ اللّحظات القليلة الّتي سيقضيها في حضن والديه همّه وتُذهب غمّه. انتبه إلى وجود هناء بالغرفة وهي الّتي لم تزرهم منذ زواجها قبل زهاء الشّهرين. ألقى التّحيّة وتلقّى ردّا فاترا جعل الرّيبة تخامره. فرغم أنّه غضّ الطّرف عن السّكوت الرّهيب الّذي كان مخيّما على الغرفة، إلاّ أن ذلك الرّد الفاتر جعله يشكّ أنّ في الأمر خطبا ما. تقدّم نحوها. فتح ذراعيه على مصراعيهما. ارتمت في حضنه وانخرطا في عناق صامت. أبعدها عن حضنه بلطف. مدّ كفّه إلى ذقنها برقّة. رفع رأسها بحنوّ وحدّق فيها بإمعان. أطرقت في وجوم.

تساءل في دهشة و هو يتفرّس في ملامحها:

ـ شفتاك متورّمتان؟!

استطرد وهو يمرّر كفّه بحذر على خدّها والدّهشة تزداد اتّساعا على ملامحه:

ـ ووجهك... ؟! ما هذه الكدمات في وجهك؟!

أردف مستفهما:

ـ هناء. هل أنت بخير؟

كان يعلم حتما أنّها ليست كذلك، ولكنّ أسئلته الغبيّة أرحم من ذلك الصّمت القاتل. ران الصّمت من جديد. انتقل حسن ببصره بين أبيه وأمّه

ينتظر جوابا من أحدهما، غير أنّ الإطراق والوجوم كانا سيّدي الموقف في هذا المساء الكئيب. اغرورقت عينا هناء بالدّموع وجعلت تنشج نشيجا فيه نواح وبكاء. وضعت كفّها على فمها محاولة كتم نشيجها وهرولت خارج الغرفة تاركة حسن متسمّرا في مكانه وكأنّه نصب من ذهول. جلس حذو والديه اللّذين لم يتجشّم أيّ منهما عناء تبديد الدّهشة الّتي تملّكته.

بعد لأي شديد وجهد جهيد أفلح في انتزاع بضع كلمات من والده خرجت من حلقه خروج الجمل من سمّ الخياط :

ـ يبدو أنّ زواجهما وصل إلى الباب المسدود.

ـ ولكن لماذا؟!

تساءل حسن باستغراب قبل أن يضيف:

ـ بالكاد انقضى شهران على زواجهما. لم تشك يوما بثّا ولا عنتا، بل كانت دائما، كلّما هاتفتها، لا تتوانى في ترديد كلمات الثّناء والإطراء في حقّ زوجها. فما الّذي تغيّر بين عشيّة وضحاها؟!

خرج صوت الأب مكدودا كمن ينوء تحت وطأة همّ لا طاقة له به:

ـ أنت تعرف أختك. لو كان في تعاستها سعادتنا لانغمست فيها دونما شكوى. إنّها تؤثر هناءنا على هنائها، فلا عجب أن تتصنّع الفرح والسّرور للحظة لتمنحنا الرّاحة والاطمئنان للحظات.

ـ نعم. ولكن ما الّذي حدث بالضّبط؟

ـ قل ما الّذي لم يحدث؟

لم يكن هيّنا أبدا على الأب أن يحكي لابنه ما حدث بسلاسة وهو الّذي سوّر علاقته به وبأخته بسور من حشمة ووقار، لذلك كان لزاما عليه أن ينقّب في خزّان مصطلحاته عن تلك الّتي قد تفي بالغرض دون أن يضطرّ لتدمير ذلك السّور المتين.

علم حسن من أبيه أنّ عمر كان زوجا سيّئا لأخته، بل ويحتلّ مركزا متقدّما ضمن قائمة الأزواج السّيّئين وعن جدارة واستحقاق لا ينافسه فيهما أحد. فمنذ أن استفرد بها بعد رحيلهما لتلك المدينة البعيدة، بدأت بوادر الانفصام تظهر على شخصيّته. فقد كان غريب الأطوار. تبعث تصرّفاته الحيرة والدّهشة في النّفوس. فما يكاد روعه يهدأ حتّى يخرج عن طوره من جديد. بسرعة البرق ينتقل من هدوء طفل وديع امتدّت إليه يد أمّه لتخلّل شعره في حنوّ بعد أن قضى لبانته من ثديها حتّى ارتوى، إلى هيجان ثور ضخم امتدّت إليه يد مصارع أرعن غارزة سهما حادّا في ظهره بوحشيّة. وإذا كان ثور المصارعة يملك من الأسباب ما يكفي للثّوران ضدّ مصارعه، فإنّ عمر كان يثور بلا سبب أو لأسباب واهية لا يتورّع المرّة تلو الأخرى عن إقناع نفسه بها مانحا إيّاها مبرّرا يقيها تأنيب الضّمير ويخوّل لها الحقّ في ممارسة طقوسها شبه اليومية في التّعنيف بشتّى أنواعه. كان ينعت هناء بأقبح النّعوت ويتّهمها بأبشع التّهم. فتارة، وبتحالف مع هلاوسه الشّديدة الّتي كانت تجعله يتخيّل سماع

أصوات لا تنبع سوى من داخله، يتّهمها بالخيانة نهارا جِهارا، وتارة يتّهمها بالتّبذير أو بالتّقصير في واجباتها الزّوجية، وتارة أخرى... وكان يتفنّن في اختيار العقاب المناسب لكلّ تهمة تفنّن المرأة في اختيار ملابسها لكلّ مناسبة. يشتمها، يضربها، يهجرها في الفراش، يحبسها في الغرفة بلا طعام ولا شراب...وكان في كثير من الأحيان يدفن رأسه في حضنها وينتحب وكأنّه يغسل بدموعه ما اجترحت يداه. يكون طيّبا أحيانا كأنّه لم يكن قاسيا يوما ما، ويصير قاسيا أحايينا كأنّ قلبه لم يستمرئ طعم الطّيبة من قبل. يستفيق صباحا بقلب مترع بالقناعة والرّضى وبلسان يثني على الفقر والفقراء، ولا يذهب للنّوم إلاّ وقلبه قد امتلأ بالجشع والطّمع ولسانه يلفظ بكلام يتلهّف للغنى تلهّف الغرثان المقرور لوجبة دسمة وكنّ دافئ. يتحرّى الحلال ويحرص عليه اليوم، و يأبى إلاّ أن ينغمس في الحرام، انغماس غوّاص محترف في حوض سباحة، في الغد. يقصّ شاربه ويعفو عن لحيته ويقصّر ثوبه ويأمرها بارتداء النّقاب وهي الّتي لا تبرح المنزل إطلاقا، ثمّ ما يلبث أن يعود لسالف عهده وكأن شيئا لم يكن.

شهران مرّا عليها كأنّهما عامان. كانت فيهما نعم الزّوجة الصّبورة الصّالحة النّاصحة. وكانت مستعدّة أن تسير على درب الصّبر المفروش بالأشواك حتّى تُوفّى أجرها بغير حساب. وما كانت تُمنّي نفسها بأجر أعظم من أن ينصلح حال زوجها. إلاّ أنّ أمانيها ذهبت أدراج الرّياح ولم تُجازى إلاّ كجزاء سنمّار. فذات شهوة شاذّة طلب منها إتيانها من حيث حرّم اللهّ. ارتعدت فرائصها

وأصابها روع شديد لا قبل لها به. لكنّها غالبت خوفها وانتفضت وثارت في وجهه ثورة بركان خامد. عنّفها تعنيفا رهيبا كما لم يعنّفها من قبل، فما ملكت إلاّ أن حملت حقيبتها واتّجهت مرغمة صوب بيت والديها...

ولأنّ الدّواهي تأبى أن تنزل بالمرء إلاّ وهي متكالبة عليه تكالب الضّواري على فريسة منهارة القوى، فإنّ ذلك اليوم البئيس لم يبح بكلّ أسراره التّعيسة إلاّ بعد أن ألقى الأب على ابنه خبرا آخر سقط عليه سقوط المقصلة على محكوم بالإعدام. لقد زارهم عبد اللهّ الجزّار صاحب الشّقّة الّتي يستأجرونها منه منذ زمن بعيد بثمن بخس لم يعد يسيل لعابه وهو يرى أثمنة الكراء في المدينة تتضاعف باستمرار حتّى خُيّل إليه أنّ عمارته انتُزعت منه انتزاعا لصالح المكترين الّذين لا يؤدّي أيّ منهم سومة كراء تربو على 400 درهم شهريا. زارهم هذا المساء يحمل جثّته الضّخمة، متدحرجا ككرة وهو يسحب خلفه ردفين سمينين، ويرتدي مريلته البيضاء الملطّخة بالدّماء والّتي تلفّ بطنا منتفخا كأنّه بطن امرأة في آخر أيّام حملها. جاء يحمل خبرا سقط على سكّان العمارة كالصّاعقة.

قال بعد أن أرغى و أزبد وفاه بكلام تمجّه الأسماع جعل كلّ قاطني العمارة يهرعون مرتاعين للتّحلّق حوله:

ـ سأمنحكم مهلة شهر لكي تبحثوا عن جحور تقطنونها وتفرغوا عمارتي.

صاح أحد السّكّان في تحدّ:

ـ ولكنّنا نؤدّي واجب الكراء، وليس من حقّك قانونيا أن تطالبنا بإخلاء الشّقق.

ضحك عبد اللّه حتّى ظهرت نواجذه. ثمّ مالبث أن قطّب.

قال بصوت ممزوج برذاذ من التّفال بلّل شاربه الكثّ الّذي يكاد يحجب فمه الصّغير غير المتناسق مع وجهه الأفطح:

ـ وهل تسمّي حفنة الدّريهمات تلك واجب كراء. إنّها بالكاد تكفيك لاستئجار جحر وليس شقّة.

أردف متوعّدا:

ـ على ذكر القانون الّذي جئت على ذكره. بقوّته ستخلون العمارة.

ثمّ استطرد بعد أن دسّ كفّه في جيب سترته وأخرج ورقة لوّح بها في الهواء:

ـ العمارة آيلة للسّقوط. ومعي شهادة من الجهات المختصّة تثبت ذلك. والمحكمة ستحكم بالإفراغ لا محالة. ولأنّي أصيل كريم المحتد فقد منحتكم شهرا لتبحثوا لكم عن جحور تأويكم قبل أن تعرّضوا أنفسكم للإفراغ بقوّة القانون.

ثمّ غادر متدحرجا مخلّفا وراءه جلبة عظيمة اختلطت فيها الحوقلة بالدّعاء بصنوف الشّتم والقذع.

شعر حسن بالأرض تميد من تحته، واستصغر كلّ ما حدث له في هذا اليوم مقابل هذا الخبر. أيّ وطن هذا الّذي لا يستطيع أن يؤمّن لأبنائه سكنا لائقا يقيهم حرّ الصّيف وقرّ البرد؟! أيّ وطن هذا الّذي يتّخذ موقع المتفرّج على الضّعاف من أبنائه وهم يجابهون الطّواغيت بصدور مكشوفة دون أن يحرّك ساكنا؟! أيّ وطن هذا الّذي يحكمه قانون أعور يتعقّب أخطاء الفقراء ويتغاضى عن جرائم الأغنياء؟! لك اللهّ يا وطني.

علّق بصره بالصّورة الملصقة بأحد جدران الغرفة. رآها لآلاف المرّات ولكنّها لم تسترع انتباهه ولو مرّة كما فعلت الآن. في مستوى الصّورة الأوّل رجل في غلواء شبابه، متدثّر بدرّاعة زرقاء مفتوحة ورأسه ملفوف بلثام أسود. كان وجه الشّابّ المترب ينضح صحّة وقوّة وحيويّة. كان فمه مفتوحا على اتّساعه، إذ ظهر وكأنه كان منخرطا لحظة التقاط الصّورة في هتاف مفعم بالحماس. كانت كلتا يديه مرفوعتين للأعلى. يمناه تعانق علم البلاد، بينما تحتضن يسراه، في حبّ ظاهر، صورة ملك البلاد آنذاك الحسن الثّاني. أمعن حسن النّظر في الصّورة وكأنّه يكتشف تفاصيلها لأول مرّة. رنا في إشفاق إلى والده المطروح على الأرض بلا حراك كالقتيل. برق في ذهنه سؤال جعله يعضّ شفته السّفلى في حسرة وامتعاض: كيف لمواطن ضحّى بنفسه في المسيرة الخضراء من أجل تحرير أراض شاسعة من وطنه ألاّ يملك القدرة على تملّك شبر يحفظ له كرامته في هذا الوطن ؟! أحاله هذا السّؤال على آخر: لماذا تشحذ الدّولة هممها وتحشد كلّ طاقاتها وتنفق بسخاء حاتميّ على الأقاليم الصّحراوية

متذرّعة باستكمال وحدتها التّرابية، في حين لا تحرّك الدّولة ذاتها ساكنا من أجل استكمال هذه الوحدة التّرابية باسترجاع سبتة ومليلية من إسبّانيا الّتي تُحكم قبضتها عليهما منذ زمن بعيد؟!

تساءل حسن بصوت مخنوق وهو يجيل بصره بين أبيه وأمّه في عجز قاتل:

ـ وماذا نحن فاعلون الآن؟

أجابت الأمّ بصوت متهدّج أضناه النّصب وأنهكه الوصب:

ـ لنا اللهّ يا ولدي. هو وحده الكريم الّذي لا ينسى عباده.

استسلم الجميع لصمت رهيب هيمن على الغرفة. دلف بعدها حسن إلى غرفته ليسقط فريسة سهلة بين مخالب أرق لا يرحم. مرارا حاول النّوم، ولكنّ محاولاته كلّها باءت بفشل ذريع. أنّى له أن ينام وقد أمست أسرته عرضة للتّشرّد. أحسّ بالمرارة. منتهى الجور أن يشعر المرء بالغربة في وطنه.

قلبت الحادثة أفكاره عاليها سافلها. ترى من منّا على حقّ؟ أنا أو خالد؟ هكذا بات يتساءل.

19

هي وحدها قادرة على أن تجعل الإنسان يدرك في رمشة عين ما عجز عن إدراكه بعد تخطيط وتدبير دقيقين لردح من الزّمن. نعم...هي الصّدفة وحدها قادرة على ذلك، فكيف يكون الأمر لو تحالفت هذه الصّدفة مع موعد تمّ التّهيئ له سلفا؟

كان موعد كمال هذا المساء مع ضحيّة جديدة قادها الإملاق إلى الاستعانة بآخر ورقة وجدت نفسها مضطرّة للّجوء إليها بعدما أُوصِدت أمامها جميع منافذ الرّزق الحلال. ضحيّة لا يتورّع كمال وأمثاله من أبناء الطّبقة البورجوازية عن اصطيادها وافتراش جسدها لاستباحته استباحة السّيّد لقنّه نظير ثمن زهيد لا يكاد يؤثّر على مصروف الجيب اليومي لأحدهم. لكن هذا المبلغ الهزيل يستحيل ثروة محترمة في عيني هند ومثيلاتها من بنات الطّبقة الموغلة في الفقر.

هند... وصمة عار وشنار أخرى على جبين هذا الوطن الظّالم. بصقتها القرية منذ حوالي سنة بعد أن ضاقت معدتها ذرعا بلدغات الجوع الموجعة، لتتمرّد على واقعها المرير وتطرق أبواب المدينة مهاجرة حاملة بين يديها فقرها وبؤس أسرتها المكوّنة من أمّ ترمّلت منذ عهد بعيد وأخ وأخت لا عائل لهما من دونها. قصدت المدينة عزلاء سوى من حلم كبير بحجم فاقتها الّتي تتمنّى أن تسحقها بقدميها على أعتاب مصنع أو معمل أو مطعم أو حتّى مقهى. تبخّر حلمها سريعا في أجواء المدينة تحت تأثير نار وقودها الأنانية والانتهازية

المتغلغلة في نفوس أهل الحضر تغلغل الماء في أرض ماحل. هند...الشّابّة السّمحة الغرّ الّتي تختزن بين ضلوعها قلبا ارتوى من طيبوبة القرية الّتي لا تنضب، الفاتنة ذات البشرة البيضاء المشربة بحمرة والّتي تستفزّ كلّ مساحيق التّجميل بجمالها الأخّاذ، ما كان لمصيرها في المدينة أن يكون أرحم من مصير حمل وسط قطيع من الذّئاب.

كان مديرها في المعمل هو الذّئب الأول الّذي خدش لحمها حتّى تدفّقت دماؤها الطّاهرة لتغرقها بعد ذلك في بحر من القذارة لا قرار له. منحها تأشيرة العبور إلى عالم اللّيل في تلك اللّيلة بعد أن أغراها بتأشيرة عبور من ضفّة الفقر إلى ضفّة الثّراء حيث أولى درجات الرّقيّ الاجتماعي في انتظارها في قصر من قصور الأعراس المشهورة في المدينة، وهي في أبهى حلّتها تعتلي "العمّارية" في حفل تتويجها زوجة لمدير المعمل المعروف. جعلها تستلقي على بساط حلمها الوردي وتطير في الأعالي في نشوة غامرة خدّرت أوصالها، حتّى إذا نال منها مراده، سحب البساط من تحتها لتستفيق من خدرها على صوت ارتطامها بسطح واقع مرّ. وجدت نفسها في صبيحة اليوم الموالي شريدة في الشّارع بعد أن طُردت من المعمل كما يُطرد الكلب العقور، لتفقد ما كان من شأنه أن يكون مدعاة لتباهي أمّها وبقيّة نسوة القرية صبيحة دخلتها وهن يصدحن في زهو:

ـ "ها هو فوگ راسي لا تگولوا فرماصي"

نهشت لحمها بعد ذلك بدل الذئب عشرات الذّئاب. وهاهي الآن تجلس في شقّتها في استسلام في انتظار الذّئب الجديد.

كان كمال، الذّئب الجديد، قد ركن سيّارته في مرآب قريب وقطع عدّة أمتار راجلا قبل أن يجد نفسه منتصبا على الرّصيف المحاذي للطّريق المفضي للعمارة حيث شقّة هند. كان يهمّ بعبور الطّريق عندما لمح طيف رجل وهو يختفي داخل العمارة. كان الحدث ليكون عابرا لولا أنّ شعر الرّجل الأملس المنسدل على منكبيه العريضين بثّ في كمال شكّا، أقرب إلى اليقين، في هويّته. تمنّى أن يكون شكّه في محلّه وهو الّذي لطالما تحيّن فرصة مثل هذه دون أن يسعفه حظّه العاثر. عبر الطّريق مهرولا دون حذر حتّى كادت سيّارة أن تدهسه لولا أنّه انتبه في اللّحظة الأخيرة على زعيق بوقها المجلجل المزعج القادر على بعث أصحاب الكهف من مرقدهم. أخرج السّائق يده من نافذة سيّارته ولوّح بها في الهواء في غضب عارم ولسانه لا يكفّ عن ترجمة هذا الغضب إلى عبارات تتناسب وخطورة الموقف.

توغّل كمال في باب العمارة حاثّا خطاه، وشرع يتسلّق الأدراج متعقّبا الرّجل في حذر وكأنّه لصّ يقتفي أثر ضحيّته. وحينما وصل إلى باب شقّة هند في الطّابق الأول كان الرّجل لا يزال يواصل التهام الأدراج في اتّجاه الأعلى ولكن بعد أن استحال شكّ كمال يقينا. تسمّر في مكانه للحظات بعد أن شلّت الدّهشة تفكيره وعجز عن اتّخاذ قرار مناسب، لكنّه لم يستطع منع ابتسامة

خفيفة من تغليف وجهه جعلته يضرب بقبضته في الهواء في سعادة وظفر. تجاهل الجرس عن قصد، ونقر بقبضته على الباب وفق إيقاع معيّن متّفق عليه. انفرج الباب وتسلّل إلى الدّاخل بعد أن أوصده وراءه. استقبلته هند بابتسامة رقيقة ممزوجة بحشمة مصطنعة يعلم جيّدا أنّها طقس مقدّس لا تكاد تحيد عنه أيّ عاهرة في لقائها الأوّل مهما بلغت مرتبتها في عالم الدّعارة وذلك لعلمهنّ أنّ الرّجل يميل بطبعه للمرأة الحييّة المتمنّعة أكثر من ميله للخليعة الماجنة.

ـ تفضّل.

قالت وهي تعزّز كلمتها بإشارة من يدها.

هزّ رأسه في امتنان:

ـ شكرا.

قالت ويدها لا تزال تشير إليه بالجلوس:

ـ أتمنّى ألاّ تكون قد واجهتك مشكلات في تعرّف الشّقّة.

قال وهو يجلس على أريكة متهالكة:

ـ لا أبدا.

كان بودّه أن يقول لها أنّه ممتنّ للقدر الّذي ضرب لهما موعدا في هذا اليوم بالذّات وفي هذه اللّحظة بالذّات وفي هذه العمارة بالتّحديد تزامنا مع وجود ادريس فيها. كان بودّه أن يخبرها أنّه اللّحظة متشوّق لمعرفة ما يفعله ذلك الوغد هنا أكثر من شوقه للقائها. كان بودّه أن يخبرها أنّه سيدوّن هذا اليوم

ضمن قائمة أجمل أيّامه لأنّه منحه فرصة من ذهب للانقضاض على صهره متلبّسا بجرم ما يخوّل له الانتقام منه على ما اقترفت يداه في حقّ أسرة المنصوري منذ أن وطئت قدماه بيتها. كان بودّه أن يقول كلاما كثيرا في هذا الصّدد. ولكنّه أحجم عن ذلك.

خيّم الصّمت للحظة.

تنحنحت محاولة كسره قبل أن تقول وهي تجلس وتمرّر بصرها على أرجاء الشّقّة:

ـ شقّتي متواضعة.

قال مجاملا:

ـ لا أبدا جميلة.

قالت وهي لا تزال تمسح الشّقّة ببصرها وكأنّها للتّوّ تكتشفها:

ـ أعرف أنّها ليست كذلك.

أردفت وهي تبتسم وترسل له نظرة مغرية:

ـ على العموم شكرا لك .كلّك ذوق.

من خلال تجاربه الكثيرة في عالم النّساء، كان يعلم أنّها بدأت تغازله وما عليه الآن إلاّ أن يسلك معها نفس الطّريق ويبادلها غزلا بغزل ألذّ منه حتّى يصلا معا إلى ذروة المتعة والنّشوة. كان يعلم ذلك جيّدا تماما كما تجهل هي أنّ

شهوته في هذه الأثناء حادت عن الطّريق الّذي رسماه لها معا عندما تواعدا على اللّقاء. لم تعد تتملّكه شهوة الجنس بعد أن اجتاحته شهوة الانتقام...

مدفوعا من شهوته الجامحة تلك قال وهو يمهّد لسؤاله العريض حول صاحب الشّقّة الّتي تحتلّ الطّابق الثّاني من العمارة:

ـ منذ متى تقطنين بهذه الشّقّة؟

ـ منذ حوالي ستّة أشهر.

قال بمكر:

ـ ما الدّاعي إذا لتغييرها؟! لابدّ أنّ لجيرانك دخلا بالموضوع.

ـ لا إطلاقا.

أردفت مبتسمة:

ـ لي جارة واحدة فقط في الطّابق الثّاني.

طلب في اندفاع:

ـ حدّثيني عنها.

رفعت حاجبيها في استغراب.

أحسّ أنّه تقمّص دور شرطيّ في طور التّحقيق معها.

استدرك قائلا وهو يداري لهفته بابتسامة مصطنعة:

ـ أقصد علاقتك بها.

شجّعتها ابتسامته على الإجابة:

ـ علاقتي بها عادية. كثيرا ما نتبادل الزّيارات.

هزّ رأسه في اهتمام يحثّها على المواصلة.

واصلت:

ـ هي من طينتي لذلك أحببتها كثيرا. كلتانا جار الزّمان عليها. كادت مأساتها أن تكون نسخة طبق الأصل لمأساتي لولا أنّها استثمرت بشجاعة في مأساتها.

قهقهت كالمجنونة ثمّ أردفت:

ـ قد يتحمّل الضّحيّة أن يعيش ضحيّة طوال حياته، ولكنّ من الصّعب جدّا أن يعيش الجلاّد ضحيّة ولو للحظة واحدة.

نظر إليها في عدم استيعاب وقال مستفهما:

ـ ماذا تقصدين؟

تنهّدت تنهيدة عميقة حزينة وكأنّ الكلام الّذي سيعقبها سينكأ جرحها الّذي لم يلتئم بعد.

قالت وقد تبخّرت آخر قطرة من حياء كانت ماتزال في وجهها:

ـ اختُطفت عذريّتي ذات حلم ورديّ على سرير مديري في المعمل، فوجدتني طريدة شريدة لا سلاح لي أجابه به الحياة سوى ذلك الّذي أتى بك

إلى هنا. أما جارتي فقد أصابها من مخدومها نفس ما أصابني من مديري، بيد أنّ أحشاءها كانت خصبة عكس أحشائي فأنبتت جنينا جعلها ترتبط به إلى الأبد. الحاجّ علي الرّجل الثّريّ والبرلمانيّ المشهور. لابدّ أنّك قد سمعت به يوما.

عقدت الدّهشة لسانه وبدا وكأنّ صمما ألمّ به. هل يصدّق أذنيه؟ كان بودّه ألاّ يصدّق، ولكن تلك الكلمات لازالت تتردّد في أذنيه: الحاجّ علي الرّجل الثّريّ والبرلماني المشهور. شعر ببرودة شديدة تجتاح أوصاله، تلك البرودة الّتي تشلّ الأطراف عن الحركة وتشلّ العقل عن التّفكير. ما علاقة أبيه بالموضوع؟ لم يستوعب الأمر جيّدا، أو ربّما لا يريد أن يستوعب. أحيانا يرفض الإنسان استيعاب أمور واضحة وضوح الشّمس فقط لأنّها لا تعجبه.

عادت آليات التفكير لديه للعمل تدريجيا. بدأ يعالج الأمر بشكل منطقيّ أكثر. لقد سعى لاقتناص فرصة ذهبية تمكّنه من الانتقام من ادريس والتّخلّص منه للأبد، ولكنّه وجد نفسه في مأزق حقيقيّ كفيل بتمريغ سمعة العائلة في الوحل. تسارعت وثيرة تفكيره بشكل جنونيّ. لا يكاد يفرغ من فكرة حتّى تنثال عليه أفكار كثيرة.

آب من شروده على صوتها تسأل في استغراب:

ـ ما بك؟

بتلعثم أجاب:

ـ لا...لا شيء.

استطرد متسائلا وهو يزدرد ريقه بصعوبة:

ـ ما اسم جارتك؟

أجابت وهي تهزّ كتفيها في عدم مبالاة:

ـ خديجة.

ابتلع غصّة بطعم العلقم وأشار بيده في اتّجاه خمّن أنّه اتّجاه المطبخ:

ـ كأس ماء من فضلك.

دون أن تفوه بكلمة توجهّت صوب المطبخ والحيرة تتكاثف في عقلها كما تتكاثف السّحب في السّماء. ما إن اختفت داخل المطبخ حتّى هبّ واقفا ومشى بخطوات واسعة صوب الباب. فتحه وخرج. أغلقه فنزل السّلّم عدوا. وماهي إلاّ لحظات حتّى وجد نفسه خلف مقود سيّارته يلهث لهاث كلب عطشان. وما إن كفّ عن اللّهاث واستعادت أنفاسه انتظامها حتّى أسند ظهره إلى مسند مقعده وتسمّر في مكانه وكأنّه مثبّت بأوتاد. أغمض عينيه وهام في تفكير لا يسمن ولا يغني من جوع. ضرب المقود بقبضته في يأس. فتح عينيه وأدار محرّك السّيّارة وانطلق بسرعة لا يلوي على شيء.

قضى زهاء السّاعة وهو يجوب شوارع المدينة. يسير بسرعة جنونية في طريق ثمّ ما يلبث أن ينعطف ليسير في الطّريق الموازي وكأنّه سائق محترف في حلبة من حلبات "الفورميلا 1". لم يكن يدري أهو من يقود السّيّارة أم هي الّتي تقوده؟ كان عقله في أوج نشاطه وهو يفكّر ويحلّل ويخمّن السّيناريوهات

المحتملة. كان يبحث بكلّ ما أوتي من رجاحة عقل عن حلّ مناسب ينأى بعائلته عن فضيحة محتّمة. كلّما راودته فكرة أنّه فشل بعد أن كان على وشك الانتقام من ادريس إلاّ وشعر بإحباط قاتل يجثم على صدره. شعورٌ مثل ذلك الّذي ينتاب النّائم الهائم في حلم لذيذ، حتّى إذا أصبح قاب قوسين أو أدنى من تحقيقه ارتفع رنين المنبّه ليوقظه من حلمه صفر اليدين. ردّد الحوار الّذي دار بينه وبين هند في نفسه عشرات المرّات علّه يعثر بين ثناياه على ما يبرّئ ساحة والده. ولكنّ النّتيجة لم تكن تتغيّر في كلّ مرّة عن سابقتها. الحاجّ علي بكلّ جاهه وهيلمانه سقط في مستنقع الخيانة مع خادمته السّابقة الّتي أحكمت قبضتها عليه بعدما ربطته إليها إلى الأبد بطفل. وادريس بكلّ طمعه وجشعه لابدّ أنّه تلقّف الحادثة تلقّف كلب جوعان لقطعة لحم ملقاة.

بعد أن اصطدمت كلّ أفكاره بجدار منيع من اللّاجدوى، قرر كمالّ أن يعود أدراجه إلى البيت.

20

دخل مثقلا بالهموم والأحزان يتعثّر في خيبة مريرة. دلف إلى غرفة الجلوس حيث تجلس أمّه وأخته ترتشفان الشّاي وتتابعان التّلفاز باهتمام. بالكاد أدخل رأسه وأطلّ عليهما تاركا جسمه خارجا. ألقى تحيّة باردة متحاشيا النّظر إليهما.

همّ بالانصراف لكنّ أمّه استوقفته قائلة:

ـ كمال. ماذا بك يا ولدي؟

رنا إليها في إشفاق وأجاب بعد أن كست وجهه الحزين ابتسامة مصطنعة:

ـ لا شيء أمّي...لا شيء. قليل من التّعب فقط.

وقبل أن يستدير متوجّها إلى غرفته، سحب بصره من على وجه أمّه ليستقرّ على وجه أخته الّتي بدت فاغرة فمها كالبلهاء وهي تشاهد مسلسلا مدبلجا من المسلسلات الّتي تحرص على متابعة كلّ تفاصيلها حرصها على وجباتها. أشاح ببصره عنها ليلمح الصّورة الضّخمة الّتي ازدانت بها الغرفة. في طريقه صوب غرفته لم يمنع نفسه من الإمعان في تلك الصّورة الّتي رسخت في ذهنه بأدقّ تفاصيلها حتّى بدا وكأنّه يراها رأي العين. الصّورة تعود لشهر أكتوبر 2007. وهي تظهر حشدا من الرّجال رافلين في جلابيبهم البيضاء الّتي غطّت أقبابها رؤوسهم حتّى بدوا كسرب من اللّقالق. كان الرّجال، ومن بينهم الحاجّ علي المنصوري الّذي ظهر نصفه العلوي فقط في الصّف الثّاني، يصفّقون

بحرارة وأعينهم متطلّعة بانبهار للملك محمّد السّادس الّذي كان يعتلي المنصّة في قبّة البرلمان وقد وضع يمناه على صدره يحيّي نواب الأمّة بعدما فرغ من خطابه الّذي افتتح به الدّورة الأولى للبرلمان. خطر في خلده سؤال: ترى هل ستمهل الفضيحة الحاجّ علي المنصوري كي يشهد موقفا كذاك مرّة أخرى؟

في غرفته، وهو مستلقٍ على مرتبته الأثيرة، داهمت فكره صورة أخرى جديدة أزاحت الصّورة الأولى القديمة: صورة البرلمان، واستقرّت مكانها في فكره وفي غرفة الجلوس. الصّورة الجديدة كانت على الصفحة الأولى لإحدى الجرائد المغربية واسعة الانتشار، وقد بدا فيها الحاجّ علي المنصوري بوجه كالح، وفي أعلى الصّورة مكتوب بالخطّ العريض: **فضيحة أخلاقية تنسف الحياة السّياسية للحاجّ علي المنصوري**. زفر كمال في ضيق يحاول إبعاد هذه الصّورة عن خياله وشرع في جولة جديدة من التّفكير لعلّه يهتدي لحلّ لهذه المعضلة الّتي لم تكن في حسبانه. وقبل الفجر بقليل كان قد اتّخذ قراره...

21

لو عُرضت الأيّام على حسن ليختار منها أيّاما يمحوها من ذاكرته لكان يوم الخميس 30 يونيو 2011م حتما من بين هذه الأيّام. ففي ظهيرة ذلك اليوم كان رفقة هناء يغادران باب المحكمة بوجهين كالحين ورأسين منكّسين حتّى بديَا كجنديين عائدين من ساحة المعركة راسفين في هزيمتهما المذلّة ومتعثّرين في خيبتهما المخزية. يتحرّكان بتثاقل وبرودة شديدة تجتاح أوصالهما كبرودة دماء القاضي وهو يحكم على أسرتهما بإخلاء الشّقّة. كان حسن متأكّدا أنّ شفتي القاضي ما كانتا لتفرجا عن حكم أرحم ممّا أفرجتا عنه، ولكن رغم ذلك فقد كان متشبّثا ببصيص أمل يشبه ذلك الأمل الضّئيل الّذي يحتلّ كيان الغريق عندما يتشبّث بقشّة. لقد كان ينتظر معجزة. ولكن ما كان للمعجزة أن تحدث مادامت حجّة الجزّار دامغة وجيوبه ملأى. دسّ حسن كفّه اليمنى في جيب سرواله يتحسّس رأس ماله. رفع يده اليسرى مشيرا إلى طاكسي صغير. ركب بجانب السّائق وركبت هناء في الخلف. همس للسّائق يدلّه على العنوان بصوت لا يكاد يُسمع. تحرّك الطّاكسي وانخرط الرّكّاب في وجوم وكأنّ على رؤوسهم الطّير. توقّف الطّاكسي على مقربة من باب الشّقّة. نزلت هناء بينما أخرج حسن رأس ماله كاملا من جيبه. مدّ يده إلى السّائق يناوله ورقة نقد زرقاء. انتظر حتّى تسلّم الباقي ثمّ نزل. ولجا الشّقّة مطرقين خائفين وهما يعلمان أنّهما ما خرجا صباحا إلاّ ليعودا ظهرا بالرّصاصة الكفيلة بنقل أبيهما من عالم الأحياء إلى عالم الأموات. كانت خطواتهما ثقيلة ثقل المهمّة

الشّاقّة الّتي تنتظرهما. قارت هناء كلصّ وهي تتسلّل إلى غرفتها دون أن تعرّج على غرفة الجلوس، بينما وجد حسن نفسه وحيدا في موقف لا يحسد عليه.

دخل غرفة الجلوس متحاملا على نفسه. ألقى التّحيّة على أبيه وجلس. تبادلا نظرات صامتة. فكّر حسن: لو كان الموتى ينظرون لما كانت نظراتهم لتكون إلاّ كنظرة هذا الرّجل الّذي لا تنبض الحياة إلاّ في عينيه. بعد برهة من الزّمن دخلت الأمّ يسبقها أنينها الّذي يشي بالكمّ الهائل من الأمراض القابعة في جسدها النّحيل.

سألت بصوت ينخره الوهن:

ـ أنت هنا

أجاب:

ـ نعم وصلنا منذ قليل.

وهي تجلس بصعوبة بعد أن استندت بيديها إلى الأرض تساءلت:

ـ أين أختك؟

ـ في غرفتها.

أجاب دون أن يستطيع التّخفيف من وطأة الحزن البادي على وجهه.

هزّت رأسها ولاذت بالصّمت وكأنّها تستجمع قواها لتلقّي ضربة عنيفة.

تجلّد حسن تجلّدا لا نظير له، وبشجاعة من كان العدوّ أمامه والبحر وراءه قال:

ـ حكمت المحكمة بالإفراغ.

استطرد وهو ينقل بصره بين أمّه وأبيه يبحث عن وقع كلماته على ملامحهما:

ـ منذ اليوم يجب أن نشرع في البحث عن مسكن جديد.

لم تخطئ عينا حسن التغيّر الواضح الّذي طرأ على وجه أمّه، فذلك الوجه الّذي كان مصفرّا قد ازداد اصفرارا حتّى بدا كسنبلة في فصل الحصاد. في حين أنّ ملامح وجه الأب المتحجّرة حالت دون فضح ما يجول في خاطره من أحاسيس. تساءل حسن في قرارة نفسه: هل امتصّ أبوه الصّدمة؟

لم يكلّف نفسه عناء الإجابة عن سؤاله ظنّا منه أن لا جدوى من ورائها مادام أباه بخير، ولكنّ الأيّام تكفّلت بالأمر، فبعد بضعة أيّام لفظ الأب أنفاسه الأخيرة متأثّرا بحزنه الشّديد الّذي كان بمثابة القشّة الّتي قصمت ظهر البعير. مات في اليوم الّذي كانت فيه الأسرة في غمرة استعدادها لإخلاء الشّقّة متوجّهة لشقّة خالد الّذي آثر الانتقال للسّكن مع أحد أصدقائه العزّاب وترك شقّته تحت تصرّف أسرة حسن. فعل ذلك ربّما تكفيرا منه عن ذنبه بعدما حمّل نفسه مسؤولية مأساة زواج هناء بعمر والّتي انتهت بالطّلاق.

خيّم حزن قاتم على الأسرة. ولكنّ حسن كان حزنه مضاعفا، فهو لم يتورّع عن تحميل نفسه جزءً كبيرا من المسؤولية في موت والده. صحيح أنّه ليس مسؤولا رفيعا في الدّولة ليحاسب نفسه على الفقر المدقع الّذي تعيش فيه أسرته والّذي منعها حتّى من امتلاك صندوق من صناديق الخضر المسمّى "سكن اقتصادي". وصحيح أنّه ليس عبد اللهّ الجزّار ليلوم نفسه على جشعه الكبير الّذي جعله يتعامى عن ثروته الضّخمة ويحملق بعينيه الشّرهتين إلى أسرة لا تكاد تملك ما يجعلها تبقى على قيد الحياة. وصحيح أنّه ليس القاضي الّذي طبّق روح القانون على أسرة لاحول لها ولا قوّة، بينما لا يتردّد في تمطيط القانون ذاته على هواه كلّما تعلّق الأمر بأسرة وجيهة. كلّ ذلك صحيح، ولكنّ ذلك كلّه ما كان ليمنع حسن من نسب جزء من المسؤولية لنفسه. موت أبيه كشف له حجم حبّه له. فرغم أنّ خجله وتنشئته المحافظة نوعا ما حالا بينه وبين البوح له بذلك الحبّ، إلاّ أنّه كان حبّا جارفا قد لا تملك اللّغة مصطلحات مناسبة للتّعبير عنه.

بعد مراسيم العزاء انتقل أفراد الأسرة للعيش في بيت خالد. أصبحت حياتهم قاسية كما لم تكن من قبل، الشّيء الّذي اضطرّت معه هناء للخروج للعمل كبائعة حلويات في إحدى المحلاّت المتواضعة في المدينة. أمّا حسن فقد ساءت حالته كثيرا حتّى بدا كهيكل عظميّ مكسوّ بكتلة من حزن. كان يتعقّب حلمه القديم بخطى مترنّحة. فرغم أنّه اجتاز عامه الأوّل في الكلّيّة بنجاح، إلاّ أنّ غمامة سوداء أصبحت تحجب عن ناظريه مصير الثّورة. بل وحتّى آلياتها

الّتي كان يؤمن بها إيمانا راسخا من قبل قد طالتها الرّيب والشّكوك. فبعد أن كان يعيب على العدليين مطالبتهم بالتّغيير الجذري، أصبح اليوم أكثر استعدادا لرفع مطالبهم في التّظاهرات وإن اختلف معهم ايديولوجيا. لم يكن بتاتا راضيا عن نتائج الاستفتاء على تعديل الدّستور الّذي تمّ يوم الجمعة 1 يوليوز 2011م. دستور اعتبره ممنوحا ولا يلبّي الحدّ الأدنى من تطلّعات شباب الثّورة طالما أنّه منبثق عن "لجنة مراجعة الدّستور" وليس عن "مجلس تأسيسي" كما كان يأمل الثّوار.

22

كان كمال يعرف حقّ المعرفة أن لا مناص له من مواجهة خديجة بما ساقته له الصّدفة من خبر قصّتها مع والده، لذلك انتوى هذا المساء أن يُقدم على تنفيذ قرار كان قد اتّخذه منذ أيّام عديدة. كان هاجس الوقت يضغط عليه بشكل مريع، فلم يكن أبدا بوسعه هدر المزيد منه خصوصا أنّ الانتخابات البرلمانية المبكّرة الّتي دعا إليها الملك عقب حراك الشّارع المغربي المطالب بحقوقه المشروعة في العيش بكرامة وحرّيّة باتت على الأبواب. لم يكن بتاتا على استعداد للبقاء مكتوف اليدين في انتظار مفاجأة مدوّية قد تطيح بمستقبل أبيه السّياسي للأبد وهو الّذي شرع في تسلّق سلّم المجد السّياسي درجة درجة حتّى بات أقرب من أيّ وقت مضى من القمّة. فبعد ولايتين تشريعيّتين، لم يستطع الحاجّ علي المنصوري أن يخفي سيلان لعابه وهو يتلمّس بيديه إحدى الحقائب الوزارية في انتظار الانقضاض عليها بلا هوادة. لم يكن أبدا بمقدور كمال الانتظار خصوصا بعد أن صار من شبه المؤكّد وجود علاقة مشبوهة بين ادريس وخديجة. لن ينتظر أبدا حتّى يرى الحبل ملفوفا حول عنق والده وادريس من ورائه يشدّ بكامل قوّته في غلّ وابتسامة الشّامت تغلّف وجهه. ضرب كمال بقبضته بحنق شديد على فخده وهو يتخيّل ذلك المنظر المفزع. في هذه الأثناء كان يقود سيّارته برعونة قاصدا خديجة. بعد لحظات لم تطل وجد نفسه متسمّرا أمام باب الشّقّة. وضع يده على الجرس وجمد على هيئته تلك لبرهة بعد أن ساوره خوف مفاجئ مثل ذلك الّذي يجتاح

قلب طالب قبل تسلّم ورقة الامتحان. عبّ نفسا عميقا وزفر بشدّة طاردا مخاوفه خارجا. ضغط على الجرس وانتظر مصيخا بسمعه إلى الدّاخل. لحظات قليلة وتناهى إلى مسمعه وقع أقدام تقترب. انفتح الباب وانفتح معه فم خديجة على اتّساعه دهشة.

بعد أن جاد عليها كمال بلحظة صمت لتمتصّ صدمتها قال متسائلا:

ـ سنبقى على الباب طويلا؟

أزاحت جسمها الّذي كان يسدّ الطّريق فاسحة له منفذا للدّخول وهي تقول في ارتباك معزّزة كلامها بإشارة من يدها:

ـ تفضّل...تفضّل بالدّخول.

توغّل كمال إلى الدّاخل في حين أغلقت هي الباب ولحقت به وهي تحاول مداراة دهشتها. جلس على الأريكة دون انتظار دعوة منها وجلست قبالته مشبّكة أصابعها فوق فخديها وساقاها تهتزّان في عصبيّة بادية.

قال بنبرة حازمة:

ـ هاه! لم تكوني طبعا تنتظرين مثل هذه الزّيارة أليس كذلك؟

قالت بتلعثم:

ـ لا...نعم...طبعا...أقصد...

قاطعها كأنّه لا يأبه لجوابها وقال بنفس النبرة الحازمة وهو يعقد يديه فوق صدره:

ـ خديجة! أنا أعرف كلّ شيء. ما رأيك أن نلعب على المكشوف؟

متظاهرة بعدم الفهم قالت:

ـ ماذا تقصد؟

قال:

ـ أقصد حرام أن تعضّي اليد الّتي امتدّت لك بالخير لسنوات طوال.

قالت:

ـ ولكن...

وهو يجيل بصره في أرجاء الشّقّة كمن يبحث عن شيء ما قال في سخرية:

ـ أين أخي الصّغير؟ لابدّ أنّه نائم أليس كذلك؟

رفعت حاجبيها في استغراب:

ـ ماذا؟!

قال:

ـ مصرّة أنت على التّغابي.

استطرد بعد أن انتفض واقفا وجعل يتحرّك أمامها واضعا كفّيه في جيبي سرواله:

ـ أعرف أنّك أوقعت بالحاجّ في شراكك. ربّما عرفت متأخّرا جدّا. لكن في النّهاية عرفت. أعرف أيضا أنّك أنجبت منه طفلا. وأعرف علاقة ادريس. هاه! ماذا تريدين أكثر؟!

قالت بصوت متهدّج وعلامات الاستغراب لاتزال واضحة على ملامحها:

ـ ولكن...يبدو أنّك لم تفهم...أقصد...

نظر إليها شزرا وقد بدا أنّ صبره بدأ ينفد وصرخ فيها:

ـ خديجة! أين الطّفل؟

انكمشت في مكانها وهي تقول:

ـ لا يوجد طفل.

انقضّ عليها بسرعة وقد خرج عن طوره. أمسك بخناقها وجذبها إليه بعنف حتّى أصبح أنفها يكاد يلامس أنفه وصرخ فيها مهدّدا:

ـ إذا كنت تعتقدين أنّ لديّ من الوقت ما يكفي لأضيّعه معك فأنت واهمة.

ثمّ واصل وعيده بعد أن دفعها معيدا ايّاها إلى مكانها حيث كانت قبيل قليل:

ـ هاه! ستقولين كلّ شيء أو سيكون لي معك أسلوب آخر؟

كان قلبها يختلج بقوّة، وأنفاسها تتسارع في اضطراب، وأطرافها ترتعش من شدّة الفزع. أصبحت تعلم أكثر من ذي قبل أنّ خطرا محدقا سيصيبها إن هي تمادت في استفزاز هذا الثّور الهائج المنتصب أمامها. لذلك لم تجد بدّا من أن تفوه بكلّ شيء مباشرة بعد أن هدأ روعها. سردت على مسامعه الحكاية كما حدثت بكلّ حيثيّاتها من الألف إلى الياء. علاقة غير شرعية، الحاجّ، ادريس، سعاد، الزّواج، الطّرد، الحمل، الإجهاض، الانتقام، الابتزاز، المال، الشّقّة...

كان كمال ينصت بكلّ جوارحه في اهتمام وتحفّز. وعندما أتمّت خديجة كلامها كان مقدار مقته لادريس قد تضاعف أضعافا مضاعفة.

ـ هكذا إذا! الخبيث. لابد أن يدفع الثّمن غاليا.

هكذا علّق ثمّ واصل موجّها كلامه لخديجة وهو يعود للجلوس في مكانه:

ـ ما رأيك أن نعقد صفقة رابحة لنا جميعا؟

ـ صفقة؟!

قال موضّحا:

ـ نعم نعم صفقة. ما رأيك أن تتركي هذه المدينة وتتواري عن الأنظار وتقطعي علاقتك نهائيا بادريس مقابل...

سكت قليلا كأنّه بصدد التّخمين في المبلغ المناسب لبضاعة معروضة أمامه، ثمّ تابع وهو ينطق المبلغ بنبرة فيها من الإغراء الشّيء الكثير:

ـ مقابل 20 مليون سنتيم.

رنا إليها في استجداء وكأنّه يستدرّ موافقتها على عجل.

ولّما لاحظ الحيرة على وجهها واصل محبّبا ايّاها في العرض:

ـ بهذا المبلغ يمكنك أن تنشئي مشروعا يدرّ عليك أرباحا مهمّة.

ثمّ استطرد بعد أن عاد لنبرة الوعيد:

ـ واتركي الكبار وشأنهم، فمن يقترب من النّار لابدّ أن يحترق بلهيبها.

ودون أن يفسح لها المجال للرّد، وهو الموقن أنّها لا تملك غير القبول خيارا، قال بنبرة آمرة:

ـ اجمعي أغراضك. غدا في مثل هذا الوقت سأمرّ عليك ومعي المبلغ.

هبّ واقفا واتّجه صوب الباب قبل أن يأتيه صوتها ذليلا منكسرا:

ـ ولكن...ادريس!

ـ دون أن يلتفت قال:

ـ تصرّفي.

فتح الباب وخرج ثمّ مالبث أن أطلّ برأسه وهو يقول:

ـ هاه نسيت! منذ الغد سأبحث لك عن مشتري للشّقّة.

أغلق الباب ورحل وتركها في حيرتها تعمه.

كانت تعلم أنّها لو لم تسقط جنينها لكانت الآن في موقف قوّة تفرض شروطها كما تشاء بدل هذا العجز المقيت الّذي وجدت نفسها ترسف فيه في خنوع. لذلك ما ملكت إلاّ أن جمعت أغراضها وانتظرت...وفي اليوم الموالي تسلّمت المال ورحلت...

23

وقف ادريس أمام باب شقّة خديجة ونفسه ترتع في لذّة غامرة، وهواه المتّقد يهفو إلى طبق شهيّ من المتعة والنّشوة في الدّاخل. كلّما تذكّر أنّه نال من دنياه كلّ ما يشتهيه دون عناء إلاّ وخالجه إحساس لذيذ بالنّصر. لقد حاز زوجة ذات نسب وجاه ومال يتمنّاها أيّ زوج. وحبيبة ذات مال وجمال يحسده عليها أيّ شابّ. وأراح نفسه من مرارة وضنك العيش في الغربة بدون طائل. لقد ضرب سربا من الطّيور بحجر واحد. ابتسم في انتشاء لذكائه الحادّ ودقّ الجرس ثمّ أخذ يصلح من هندامه وأنفه شامخ في خيلاء. انتظر لثوانٍ ولكنّ الثّواني استحالت دقائق دون أن يُفتح الباب. استحال الانتظار بعد ذلك قلقا وتوتّرا. انتظر وانتظر حتّى اعتراه الملل. أخرج هاتفه المحمول وبحث عن اسمها في قائمة أرقامه. ضغط زرّ الاتّصال فجاءه على الفور صوت أنثوي:"الهاتف الّذي تطلبونه غير مشغّل أو خارج التّغطية". عاود الكرّة مرّة واثنتين وثلاثا ولكن بدون جدوى. استحوذ عليه القلق واستبدّت به الشّكوك فعاد من حيث أتى خائبا كابتا في جوفه شهواته مؤجّلا اياها إلى حين.

عاد إليها في اليوم الموالي وقد كادت خيبته أن تصل إلى ذروتها بعد أن باءت كلّ محاولاته للاتّصال بها هاتفيا على مدار اليوم بالفشل. عاد إليها بقلب ينبض على إيقاع أمل ضئيل. عاد إليها ليعود من أمام باب شقّتها وهو يعمه في حيرة عظيمة. لم يسبق قطّ أن انقطعت أخبارها عنه بهذا الشّكل المريب. كان يزورها مرّتين أو ثلاث في الأسبوع في شقّتها لينعش أحاسيسه من نبع حنانها

الّذي لا ينضب، وليحشوَ جيوبه بأموالها الّتي تجعله يظهر بمظهر الكرماء أمام بنات اللّيل في سهراته الماجنة. وكانت تهاتفه عدّة مرّات في اليوم. لذلك فقد عنّ له أنّ في الأمر سرّا ما. لم يمنع نفسه من الخوض في جميع الاحتمالات حتّى السّيّئة منها.

ربّما يكون أحد أفراد أسرتها قد أُصيب بمكروه فذهبت لزيارته على عجل فشغلها مصابها عن الاتّصال به. أو ربّما امتنعت عن الاتّصال به والرّد عن اتّصالاته بسبب ضعف الشّبكة في القرية. أو ربّما...!أصابه الفزع والذّعر من هذا الاحتمال الّذي سُلِّطت عليه جميع أضواء أفكاره حتّى بدا واضحا أقرب من غيره إلى المنطق والواقع. ربّما يكون قد أصابها مكروه في شقّتها ونفد مخزون شحن بطّارية هاتفها المحمول. هل ماتت خديجة؟ هكذا أصبح يتساءل. استولى هذا الخاطر على كلّ أفكاره. غزاه شعور امتزج فيه الخوف بالعجز. لم يكن يريدها أن تموت. أو ليس الآن على الأقلّ. لايزال في حاجة ماسّة لجسدها ومالها.

مرّ حوالي أسبوع دون أن يظهر لخديجة أثر. قرّر ادريس أن يخطو خطوة إلى لأمام في طريق بحثه عنها. قرّر أن يسأل عنها جارتها الوحيدة الّتي لطالما حدّثته عنها. سيسأل عنها هند فلربّما عثر عندها على خبر يبدّد هذا الشّعور باليأس الّذي يكاد يفتك به.

ركب سيّارته وأدار المحرّك وانطلق بسرعة.

بعد دقائق وجد نفسه منتصبا أمام باب شقّة هند وهو يقول لها متلعثما:

ـ السّلام عليكم. هند؟...هل أنت هند جارة خديجة؟

هزّت رأسها علامة الإيجاب وقالت بصوت خفيض وعلامات الاستغراب بادية على ملامحها:

ـ نعم.

ابتسم في فتور محاولا طمأنتها بالقول:

ـ اسمي ادريس. من عائلة خديجة. منذ أسبوع وأنا أتردّد على شقّتها دون أن أجدها فيها.

أردف فيما يشبه التّوسّل:

ـ حتّى هاتفها المحمول غير مشغّل. هل لديك أخبار عنها؟

هزّت رأسها دلالة النّفي وقالت:

ـ لا.

واصلت بعد برهة من التّفكير:

ـ لم أرها منذ حوالي عشرة أيّام.

قال بصوت يملؤه الإحباط:

ـ غريب!

ثمّ استطرد متسائلا:

ـ أين يمكن أن تكون؟

هزّت كتفيها في لامبالاة وهي تقول:

ـ لا أدري. ربّما ذهبت لزيارة أسرتها.

تابعت متسائلة بعد أن تخلّت عن لامبالاتها:

ـ ألم تتّصل بهم؟

باغته سؤالها فخرج صوته متهدّجا وهو يقول:

ـ لا...نعم...أقصد...اتّصلت بهم. ليست هناك.

قالت ببرود:

ـ عليك أن تبلغ الشّرطة إذا.

اضطربت أوصاله وقال متلعثما:

ـ الشّرطة...ولكن...نعم...سأفعل.

ودّعها وقصد سيّارته وأسئلة كثيرة تسبح في خلده. بصفته من يقوم بإبلاغ الشّرطة؟ وماذا يكون مصيره لو تمّ العثور على خديجة ميّتة في شقّتها؟ بماذا سيبرّر وجود بعض حاجياته في شقّة الضّحيّة؟ كانت هذه الأسئلة هي آخر ما دار في ذهن ادريس. فبعد حوالي ساعة كان في غرفة الإنعاش مسجى بلحاف أبيض يصارع الموت بعدما تعرّض لحادثة سير مميتة. لم تقدر قواه المنهكة على مجابهة الموت فلفظ أنفاسه الأخيرة وهو لا يعلم أنّ خديجة لازال لها في العمر بقيّة.

24

كانت الأيّام تمضي ببطء شديد وكأنّ الزّمن يتلهّف للتّوقّف. وكان حسن يصارع وحيدا في حمأة ملل مريع ورتابة فظيعة. لطالما تجرّع من كؤوس الوحدة حتّى التّخمة، ولكنّ حلما قابعا في أعماقه كان دائما يملأ كيانه ويمدّه بشحنات إيجابية تجعله ينظر للمستقبل بأعين مترعة بالأمل والتّفاؤل. ولكنّه بدأ يشعر بالكآبة شرعت تغطّي حلمه كما يغطّي الصّدأ المعدن حاجبا بريقه اللّمّاع. لقد تسلّل إلى روحه سواد قاتم ابتلع في جوفه جميع الألوان الأخرى حتّى أصبحت هذه الرّوح كمغارة حالكة الظّلمة. خفتت داخله جذوة التفاؤل الّتي كانت تبعث فيه الرّغبة في الحياة، في حين اشتعلت داخله جذوة التّشاؤم ليتمثّل لهيبها على ملامحه في صورة تعاسة وعبوس لا يكاد يُعرف لهما زمان محدّد ولا سبب معيّن. أصبح لا يبالي بأيّ شيء. أهمل اعتناءه بهندامه، وعفا عن شعر رأسه وشاربه ولحيته. كان يقضي يومه، معظمه أو بعضه، يدفع عربته في فتور يجوب شوارع المدينة وأزقّتها باحثا عن رزق زهيد لم يعد يثير فيه حماسة الماضي القريب. ينصت إلى مذياعه بقليل من الاهتمام وكأن الأمر لم يعد سوى طقس اعتياديّ لا سبيل له للتّخلّي عنه. فقد الثّقة في نفسه وفي غيره وأصبح كثيرا ما يشعر أنّه إنسان فاشل...

كانت حالة حسن تسوء أكثر فأكثر مع مرور الأيّام، فما كاد الصّيف يلملم حوائجه استعدادا لرحيل وشيك، حتّى شحب لون وجهه، وهزل جسمه، وأضحى السّهاد ضيفه الدّائم الثّقيل الّذي يجثم على صدره كلّ ليلة كلّما همّ بإغلاق جفنيه طمعا في قسط ولو يسير من الرّاحة. كان شعور مرير

بالذّنب يقتله وكأنّ أزمات العالم كلّها بسببه. موت الأب، مرض الأمّ، طلاق الأخت، فقدان رجاء، خسارة كمال، فشل الثّورة المحتمل، كلّها أمور جعل لنفسه يدا فيها مانحا ايّاها من الذّرائع ما يكفي لتأنيب ضميره وتقريعه بدون أدنى شفقة.

كان لايزال حريصا على المشاركة في التّظاهرات، غير أنّ مشاركته أصبحت باهتة بعد أن فقدت توهّجها. كثيرا ما كان يمشي وسط المتظاهرين مطرقا غائصا في صمت مهيب وكأنّه في جنازة يشيّع الثّورة إلى مثواها الأخير. لقد استبدّ به اليأس والقنوط، واستحوذ عليه التّردّد والحيرة. فلم يعد يدري هل ترسّخت في نفسه قناعة عدم الجدوى من التّظاهر أم ترسّخت في نفسه مطالب أخرى أعمق ممّا رُفع لحدّ الآن؟

في تلك الجمعة من أيّام أكتوبر 2011م، جلس حسن في المسجد ينصت لخطبة الإمام ضامّا ركبتيه إلى صدره مشبّكا حولهما أصابع يديه وعيناه التّعيستان تحملقان في الأرض وكأنّهما تقرءان فيها فصول قصّته الحزينة. كان الصّمت المهيب يخيّم على المسجد حتّى بدا وكأنّ الإمام بصوته الجهوريّ الواثق لا يخطب سوى في حشد من الأموات. كان الملل يكسو وجوه المصلّين، فموضوع الخطبة كان مستهلكا سمعوه عشرات المرّات حتّى كادوا يحفظونه عن ظهر قلب.

أنهى الإمام خطبته الثّانية وشرع يجمع أوراقه يدسّها في جيبه ولسانه يلهج بالدّعاء: اللّهمّ احفظنا من الفتن، ما ظهر منها وما بطن. اللّهمّ اجعل بلدنا هذا بلدا آمنا مطمئنّا وسائر بلاد المسلمين. اللّهمّ...

في هذه الأثناء، ودون سابق إنذار، انتفض حسن من مجلسه قائما كما ينتفض النّائم من مرقده مذعورا نتيجة كابوس مرعب، وطفق يصرخ بأعلى صوته وهو يرفع يده اليمنى ملوّحا بها في الهواء:

ـ لا للظّلم، لا للتّهميش، لا للحكرة.

ـ كرامة، حرّية، عدالة اجتماعيّة.

ـ الشّعب يريد إسقاط الاستبداد.

ـ الشّعب يريد إسقاط النّظام.

ـ الشّعب يريد إسقاط...

وقبل أن ينطق بكلمة أخرى كانت يدان غليظتان قد أحكمتا القبض على يديه وعقدتهما خلف ظهره. انفغرت الأفواه دهشة واشرأبّت الأعناق إلى ذلك الرّجل الضّخم الّذي أبان عن خفّة وسرعة بديهة منقطعي النّظير. اقتاد الرّجل الضّخم حسن خارج المسجد وتواريا عن الأنظار كما تتوارى الشّمس خلف الأفق. لم يظهر لحسن أثر بعد ذلك، وباءت كلّ محاولات أمّه وأخته في اقتفاء أيّ أثر له بفشل ذريع. لم تستطع الأمّ تحمّل الكمد الّذي سبّبه اختفاء ابنها القسري فماتت من شدّة القهر والحسرة تاركة هناء تجابه تيّار الحياة الجارف

وحيدة بلا سند. اختفى حسن قبل أن يعرف أنّ رجاء الّتي أحبّها في صمت أحبّته هي الأخرى بعد ذلك أيضا في صمت. اختفى قبل أن يعرف أنّها بريئة من تهمة "التّبّان" براءة الذّئب من دم يوسف. فابراهيم العفريت بعد أن استنفد كلّ محاولاته لنيلها برضاها، لجأ إلى الحيلة والخبث من أجل استدراجها إلى تلك العمارة حتّى يبدو أمام كمال كفارس مغوار لا يشقّ له غبار ويربح الرّهان. اختفى قبل أن يحقّق حلمه ويحظى بوظيفة ويعبر بوالديه من ضفّة النّصب والعناء إلى ضفّة الرّاحة والهناء. اختفى قبل أن يرى الحاج علي المنصوري، الّذي تتضوّع منه رائحة الفساد الزّنخة الّتي اخترقت أنوف جميع سكان المدينة ماعدا رجال الأمن الّذين بدا وكأنّ الزّكام قد عشّش فيهم حتّى تلبّد المخاط في مناخرهم حائلا بينهم وبين استنشاق تلك الرّائحة النّتنة. اختفى قبل أن يراه يفوز بمقعد في البرلمان للمرّة الثّالثة على التّوالي. اختفى قبل أن يشهد حقبة أوّل حكومة إسلامية تتولّى مقاليد السّلطة في البلاد عقب الانتخابات البرلمانية المبكّرة ليوم 25 نونبر 2011م، اختفى قبل أن يرى كيف انسحب العدليّون من حركة 20 فبراير. اختفى قبل أن يكتشف كيف نجح المخزن بدهائه في وأد الثّورة في مهدها بلعبه بورقة الإسلاميين في وقتها. اختفى قبل أن يرى أحلام شعب برمّته تتهشّم بمطرقة هؤلاء الإسلاميين أنفسهم. اختفى ولم يظهر إلاّ بعد شهور وهو يجوب البلاد حتّى استقرّ به المقام في تلك القرية النّائية حيث وجد ذلك الرّجل الشّبيه بوالده والّذي يقف أمامه متسمّرا

كثمثال، فاتحا فمه في دهشة واضحة، شاخصا ببصره إليه وهو يتفحّص قسماته بعينين جاحظتين كأنّه أمام نجم هوليوديّ شهير حالفه الحظّ للقياه لينحني أمامه في شبه ركوع قبل أن يدنو منه الهوينى خافضا رأسه محاولا تقبيل يده في مشهد ينمّ عن احترام غير مبرّر حتّى من جهة ذلك الرّجل نفسه. ظهر بعد أن جعله ابراهيم يكره النّساء وجعلته الزّنزانة يكره الظّلام .

الفصل الثّالث

في تلك اللّيلة كنت مستلقيا على مرتبتي كسمكة لفظها البحر إلى السّاحل وقد استحوذ حسن على فكري كلّه. هذا الرّجل جعلني أقف مواجها نفسي بجرأة أمام المرآة. لقد عرّاني أمام نفسي كما يعرّي الماء وجه امرأة لطّخته مساحيق التّجميل . عدت لأعقد مقارنة بيني و بينه من جديد. لم أجد صعوبة في ترجيح كفّته هذه المرّة. لقد كنت مخدوعا في نفسي. استنجدت بكلّ مناقبي فلم أعثر على ما من شأنه أن يساعدني.

من أنا؟ أستاذ عازب غارق في السّفالة من رأسه إلى أخمص قدميه. مجرّد نذل حقير اختزل الدّنيا اختزالا حتّى تماهت له كنهر من المتعة ينبع من فم حليمة ويصبّ بين فخديها. بماذا أختلف عن كمال أو ابراهيم؟!

من أنا؟ مجرّد طمّاع خبيث لم يتورّع عن إغواء رشيدة وخداعها وتوهيمها برغبته في الزّواج منها ابتزازا لأمّها كي تتنازل له عن واجب الكراء. بماذا أختلف عن ادريس أو خديجة أو عبد اللهّ الجزّار؟!

من أنا؟ مجرّد عاقّ خسيس هجر والده وقطعه لا لشيء إلاّ لأنّه أُحيل على التّقاعد وتكالبت عليه الأمراض حتّى أضحى غير ذي نفع وأصبح تقاعده لا يكفي حتّى لزيارة الأطبّاء وشراء الأدوية. كيف أسمح لنفسي بالمقارنة مع حسن؟!

من أنا؟ أنا الّذي لم يشارك يوما في تظاهرة ولم يطالب يوما بالتّغيير.

لقد انتويت التّوبة. هكذا كنت أفكّر عندما سمعت طرقا على الباب. نهضت بخمول ودلفت نحو الباب. فتحت فإذا بها حليمة بجلبابها الرّجالي تبتسم في وجهي في دلال. دخلت ودخلت وراءها بعد أن أغلقت الباب وأنا أفكّر: إنّ توبتي على المحكّ.

خلعت الجلباب وجلست على طرف السّرير وهي تقول في اعتذار:

ـ آسفة. لم أستطع المجيء ليلة البارحة.

تفحّصتها بعينين جائعتين توّاقتين للحظات من النّشوة بمذاق السّحر. فكّرت في خلدي: رحمك اللهّ يا حسن. استجبت لرغبتي المتأجّجة وأجّلت توبتي لأجل غير مسمّى.

تمّت بحمد اللّه

كثيرا ما نرى متشرّداً هائماً على وجهه لا يلوي على شيء، ولكن قليلا ما نحاول أن نسبر أغواره لنكتشف أسراره وما يعتمل في أعماقه وكأنّه وُلِد على هيئته هذه ناسين أو متناسين أنّه كان يوما ما إنسانا طبيعيا مثلنا يأكل ويشرب وينام ويضحك ويحلم...

عندما كنت صغيرا كنت أرى ذلك المتشرّد وهو يطوف أرجاء قريتي الصّغيرة مُتلفّفا في بطّانيته الرّثّة. وكنت دائما أتساءل في قرارة نفسي عن القصّة الّتي خلّفها وراءه. وعندما كبرت وتركت قريتي لظروف العمل بقيت صورته راسخة في ذهني فقرّرت أن أكتب...

تدور أحداث الرّواية في بلد يتفنّن في وأد أحلام أبنائه.

حسن رمز لشعب برمّته رازح تحت وطأة ظروف اجتماعية واقتصادية وسياسية مخيّبة. في خضمّ أحداث الرّبيع العربي الّذي هبّت رياحه على معظم بقاع العالم العربي.

تتشابك الأحداث ، وتتكالب النّوائب على حسن تكالبَ الضّباع على فريسة واهنة القوى. فهل سينجح حسن في العبور إلى برّ الأمان؟ أم أنّ الحيتان الضّخمة ستبلع أحلامه في عرض البحر مُلقيةً به في أعماق سحيقة؟

مؤسسة الرحاب الحديثة

تلفون: 00961 3 359795 فاكس: 00961 7 241032

ص ب: 11/3847 بيروت - لبنان

alrihabpub@terra.net.lb

ahmad.fawaz@live.com

ISBN 978-9953-594-99-6

9 789953 594996